صراع بين الاجيال

إيفان تورجنيف



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكر الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر يناير 2020 **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

روايات الهلال



سلسلة شهرية للثقافة الروائية

صراع بين الأجيال

تأليف

الروائي الأشهر

ايفان تورجنيف

دار الهلال

مؤلف الرواية

ولد «ايفان تورجنيف» فى عام ١٨١٨ م ، وكان مولده فى «أوريل» مزرعة القمح التى تستورد منها بلاد أوربا كافة حاجتها منه . فنشأ فى الريف ، واختبر حياته عن كثب ، وبلغ أشده فى حكم الطاغية نقولا الاول . لقد أدرك عهد « رقيق الارض » وشهد بعينه تلك الفترة السوداء من تاريخ روسيا الاجتماعى ، ومبلغ ما لقيه الفلاحون الكادحون من غبن نظام الاقطاع فى أواخر سطوته ، بل أنه شهد ما هو افدح من هذا وأنكى .. شهد اضطهاد الثقافة والادب وحرية الفكر ، فراى بعينى رأسه أعلام روسيا فى الادب والنقد والشعر ينفون الى مناجم سيبيريا ، أو يساقون مكبلين بالاغلال الى المشانق ، ليعفى عنهم فى آخر لحظة وقد تهدمت اعصابهم ... ولكن لا ليطلق سراحهم ، بل ليعملوا فى ارض سيبيريا الدائمة الجليد

وقد عرف ايفان تورجنيف السجن ثم النفى والتشريد ثلاثين عاما ظل طوالها يناضل عن الحرية بعيدا عن وطنه . وفى الثامنة عشرة دخل المؤلف جامعة موسكو ، ولكنه ضاق ذرعا بالنظام الاستبدادى وجاسوسية البوليس السياسى ، فغادر روسيا فى سن العشرين الى برلين ، فاذا بها ترزح تحت طغيان الحكم البروسى العتيد .. ولكن أستبداد بروسيا كان بالقياس الى طغيان قيصر روسيا نعمة مشكورة !

فلما عاد بعد ثلاث سنين الى بلاده لم يستطع احتمال جوها الخانق لأنفاس الاحرار ، فعاد الى الهجرة ، ولم يلم بوطنه الا فترة وجيزة من كل سنة لرعاية الضرورى من مصالحه هناك

وذات مرة راودته نفسه على الاقامة فى ريف روسيا ، فلما ظهر كتابه « قصص الصيد » سيق الى السجن ! وبذلك تزكى قلمه وأدى ضريبة الحرية .. ولكنها كانت الاولى والاخيرة فأقلع عن

الاقامة فى وطنه ما بقى من عمره !

وفى اثناء اقامته بفرنسا عقد اواصر الصداقة مع كثير من أدبائها الخالدين ، منهم جوستاف فلوبير ، واميل زولا ، والفونس دوديه ، ورينان ، وجورج ساند .. وترجم مؤلفاته الى الفرنسية بروسبر مريميه .. فاصبحت فرنسا وطنه الثانى ، وصار يعد امام المدرسة الواقعية فيها.

وقد ثقلت عليه آلام النفى النفسية ، فتهدمت بنيته القوية ، ومات فى سنة ١٨٨٣ بعد أعوام من آلام مرض السرطان ..

ومن مفارقات الايام أن رفات هذا الكاتب الذى حرم من وطنه حيا قد قوبلت فى روسيا بالتكريم الذى لو لقى فى حياته جزءا منه لكان أسعد العالمين ..



ويعتبر تورجنيف من اساطين الأدب الروسى ، بل الأدب القصصى فى العالم . وقد اعترف له بهذه المكانة جميع النقاد الثقات فى كافة الدول الكبرى.

فقد اكتملت له الأداة الفنية فى تصوير الشخصيات والمواقف والبيئات من الالوان الى الخطوط الواضحة ، الى القدرة على المزج والتركيب والتحليل .. فى اقتصاد واعتدال.

فهو من أقدر كتاب العالم على تصوير موقف معقد تصويرا وافيا ببضع كلمات ... ومن أقدر الناس على تصوير شخصية فى بضع لمسات ، فاذا هى كائن حى.



شخصيات الرواية

نقولاى بتروفتش : Nikolai Petrovitch : موظف سابق ، محب للفنون ، وسليل أسرة من القواد ، اعتكف فى ضيعته بعد ترمله

بازاروف : Bazarov : طبيب شاب متجه إلى دراسة العلم الحديث ، كافر بكل مقرر ثابت من النظريات والمبادىء

اركادى : Arkady : شاب ثرى إلى حد ما ، وحيد والده الأرمل الطيب نقولاى بتروفتش ، صديق ملازم لبازاروف

تنيشكا : Thenichka : فتاة وديعة ، رائعة الجمال ، أحبها نقولاى بتروفتش ، وهى ابنة مدبرة بيته وقد تزوجها

ادفوتيا كوشين : مثال المرأة المتحررة المستنيرة

انا سيرجيفنا : Anna Sergievna : ثرية ، أرملة ، فاتكة الحسن ، صاحبة ضيعة كبرى

كاتيا سيرجيفنا : Katia : أختها الصغرى

بول بتروفتش : Paul Petrovitch : شقيق نقولاى الأكبر ، ضابط متقاعد ، أنيق ، أرستقراطى

فاسيلى ايفانتش : Vasili Ivanitch : والد بازاروف ، طبيب عسكرى متقاعد، صاحب ضيعة صغيرة جداً ، وطبيب الفلاحين

ارينا فلاسيفنا : Arina Vlasievna : أم بازاروف . نموذج السيدة المؤمنة الطيبة العطوف

عودة الى الريف

— ماذا إذن يابطرس ؟ ألم ترهم بعد ؟

وكان صاحب هذا السؤال سيداً فى نحو الأربعين من عمره،لاتغطى رأسه قبعة ، وقد اتشح بسترة رمادية اللون ، فوق سروال من الصوف السميك ، من سراويل الركوب . وقد ألقى ذلك السؤال وهو يخطو من الداخل إلى شرفة محطة من محطات البريد ، فى اليوم العشرين من شهر مايو سنة ١٨٥٩ . أما بطرس الذى ألقى اليه السؤال فهو خادم ذلك السيد ، وهو شاب مستدير الوجنتين له عينان صغيرتان فيهما غباء،وفوق ذقنه خصلة من الشعر تتدلى منها كأنها العنقود !

وحدق الخادم فى الطريق الكبير بنظرة مستشرفة متشامخة ، وكان كل شيء فى هذا الخادم من قرط الفيروز الذى بأذنيه ، إلى شعره المصبوغ الذى كثرت عليه الأدهنة والمعاجين ، إلى قوامه المتثنى،ينم عن فرد من ناشئة الجيل الجديد ، وقال بعدئذ لسيده :

— كلا ياسيد ، لم أستطع رؤيتهم بعد !

— أواثق أنت ؟

— أجل ياسيد !

فتنهد السيد ، واتخذ لنفسه مجلساً فوق مقعد هناك . وقد ثنى ركبتيه من تحته ، ونظراته تتأرجح عنة ويسرة فى هم واكتئاب !

ان اسم هذا السيد نيقولاى بتروفتش (أى ابن بطرس) كيرسانوف ، وهو يملك على بعد لايتجاوز خمسة عشر فرسخاً من محطة البريد ضيعة محترمة تقدر بنحو مائتي نفس (على حد تعبيرهم وقتئذ،فرقيق الأرض هم وحدةالقياس،

كما أن الحصان البخاري هو وحدة قياس المحركات) ومعنى ذلك أنها تبلغ نحو خمسة آلاف وسبعمائة فدان

وكان والد نيقولاى من جنرالات سنة ١٨١٢ (الذين حاربوا أمام نابليون) وقد قضى عمره فى الخدمة العسكرية ، عاكفاً عليها منصرفاً إليها ، قائد فيلق ، ثم قائد فرقة ، ثم قائد لواء . وكانت مراكز قيادته دائماً فى الأقاليم . حيث كفلت له رتبته العسكرية مكانة مرموقة وجاهاً موفوراً

أما نيقولاى نفسه فقد ولد فى جنوب الروسيا (كما ولد هناك أيضاً أخوه الأكبر بول الذى سنتعرف اليه بعد قليل) وتلقى علومه حتى سن الرابعة عشرة على يد مؤدبين خصوصيين غلاظ الأكباد فيهم صرامة وتزمت ، وإلى جانب هؤلاء كان يخالط أركان حرب أبيه وياورانه ، وهم ضباط شبان فيهم رقة وانطلاق ولين عريكة

وأما والدته فمن آل كوليازين ، وكان اسمها وهى فتاة « أجاثا » ، فلما تزوجت صارت نموذجاً لحرم الضابط ، أى انها صارت ترتدى قبعات فخمة ذات أبهة ورواء ، وثياباً من الحرير القشيب . وكانت تحرص كل الحرص على أن تكون أول سيدة تركع أمام الصليب فى الكنيسة . وإذا تحدثت فبصوت جهورى وبطلاقة وثبات . وكانت تأمر كل صباح أن يهبط أولادها لتقبيل يدها ، ولا تغفل كل مساء أن تمنحهم البركة قبل أن يأووا إلى فراشهم . فهى على الجملة تعيش عيشة ترضاها وتوافقها كل الموافقة

وكان مفروضاً على نيقولاى الصغير ، وإن لم تظهر عليه أعراض الشجاعة ، ان يحذو حذو شقيقه الأكبر بول . فينخرط فى سلك الجيش ، ولكن شاء سوء طالعه أن تكسر ساقه يوم وصول نبأ تعيينه فى الجيش ، فلزم الفراش شهوراً ، ونهض منه يظلع بعرج لم يفارقه بعد ذلك أبداً . فلما يئس والده من صلاحيته لحمل السيف ، وجهه إلى التعليم المدنى . وكذلك وجد نيقولاى نفسه وهو فى سن الثامنة عشرة طالباً فى جامعة بطرسبرج !

وفى تلك الفترة من حياته حصل شقيقه على منصب فى فرقة من فرق الحرس القيصرى ، وصار مقره بطرسبورج ، فاكترى لهما والدهما مسكناً مشتركا ،

وجعل الوصاية عليهما ورعايتهما ومراقبة سلوكهما إلى « إيليا كوليازين » خالهما ، وهو من كبار الموظفين المدنيين ، حتى إذا اطمأن الوالد إلى ذلك الترتيب عاد إلى مقر عمله في الريف ، حيث بيته وزوجته ، ولم يعد يصله بهما إلا خطاب على ورق رمادي كبير الحجم يرسله بين الحين والحين ، أظهر مافيه توقيعه المتضخم الحروف !

وفي سنة ١٨٣٥ حصل نيقولاى على اجازته الجامعية ، وفي تلك السنة أيضا أحيل الوالد الجنرال إلى التقاعد لتقصيره أثناء عرض رسمي ، فقرر الاقامة في بطرسبرج . ولكن شاء سوء الطالع أن يعاجله قضاؤه المحتوم بعد أن اشترى بيتا لائقا في حي راق ، وقدم طلب الالتحاق إلى النادي الانجليزى .. ولم تلبث زوجته أن لحقت به ، لأنها لم تسعد بحياة العاصمة الراكدة ، ولم تسل أبداً حياة الأقاليم حيث كانت قبلة الأنظار وموضع الاعتبار !

وكان نيقولاى في حياة والديه ـ ولأسفهما وحزنهما العميق ـ قد أحب ابنة موظف من رجال الحكومة المدنيين اسمه بريبوفولنسكى ، هو صاحب البيت الذي يسكن طابقا منه . ولما كانت تلك الفتاة ليست مليحة وكفى ، بل هي «تقدمية» أيضا ـ بمعنى أنها كانت تتصفح مقالا علميا في صحيفة من الصحف اليومية بين الحين والحين ـ فقد تزوجها بمجرد انتهاء مدة الحداد على أبويه ، ثم استقال من وظيفته في وزارة الشئون القروية التي كان قد عين فيها عقب تخرجه في الجامعة بنفوذ والده ، وأقام مع عروسه في فيللا خلف معهد الغابات ، ليتمتع بمناعم الزواج . وبعد مدة ، انتقلا إلى مسكن في وسط المدينة حسن التنسيق والرياش . إلا أنهما سئماه كذلك بعد حين ، بل سئما المدينة الكبيرة كلها ، فهاجرا إلى الريف ، حيث استقر بهما المقام نهائيا ، وحيث ولد لهما في الأوان المفروض ولدهما « اركادي »

وكانت حياة الزوجين من أسعد ما يكون ، ولم يفترقا قط منذ تزوجا ، وكانا يقرآن معا ، ويعزفان على البيان ويغنيان معا . وحين تشتغل هي نفسها بالدواجن أو الحديقة ، يخرج هو للصيد أو للاشراف على شئون الضيعة ، كي يلتقيا بعد ذلك أشد شوقا وأعظم لهفة !

وفى ظل هـذا الهدوء الشامل والرغد الـكامل نشأ « اركادى » ودرج وديعا ، ناعما ، بديا !. فلما كانت سنة ١٨٤٧ ، وكان قد بلغ العاشرة من عمره، لفظت أمه نفسها الأخير ، فلم يحتمل الزوج هول هذه الصدمة المذهلة، فاشتعل رأسه الأسود الفاحم شيبا فى بضعة أسابيع ، وتقدمت به السن عشرة أعوام أو تزيد . ولم يجد فى التسرية عنـه رحيله إلى الخارج ، ونشدانه السلوان بكل سبيل فى تلك السنة ، فثاب في العام التالى إلى الضيعة يستروح أنفاس زوجته الراحلة ويعيش فى جو ذكرياتهما ، ويحاول التلهى بدراسة «الاصلاح الصناعى»

وفى سنة ١٨٥٥ بعث ابنه إلى جامعة بطرسبرج ، وأمضى شتاء السنوات الثلاث التالية فى العاصمة ليكون فى صحبته ، فلم يكن يغادر البيت إلا نادراً ، وإنما كل عنايته موجهة إلى مؤاخاة أتراب ابنه وعقد أواصر الصداقة معهم . وفى الشتاء الرابع حالت بعض الظروف دون ذهابه إلى بطرسبرج . وها نحن أولاء فى مايو سنة ١٨٥٩ نراه أبيض اللمة ، شاحب الوجه ، عليه غبرة ، وقد تقوس ظهره قليلا ، وبكرت إليه علامات الشيخوخة ، ينتظر ابنه الوحيد عند أوبته إلى موطنه بعد أن حقق ماحققـه والده من قبل ، فحصل على اجازة الجامعة !

وهاهو ذا الخادم ينسحب إلى بوابة المدخل الـكبرى ، كى يشعل غليونه. أما نيقولاى بتروفتش فظل جالساً حيث رأيناه ، مطرق الرأس، وعيناه تتفحصان درجات الشرفة العتيقة التى كانت تتمشى فوقها دجاجـة سمينة مرقشة ، تفتش بمنقارها عن الحب ، وعلى مقربة منها قطة شرسـة قبعت فوق افريز الشرفة ، وأخذت ترمقها فى امتعاض . وكانت الشمس شديدة الحرارة ، ولـكن الرجل لم يأبه بذلك ، لأنه كان مشغول الخاطر بفكرة واحدة ، هى تخرج ابنه أركادى فى الجامعة !

وجعلت تلك الفكرة تروح وتجىء فى ذهنه ، ويحاول التفكير فى غير ذلك فلا يجـد عنها منصرفا ، إلى أن لاذ بذكرى زوجته المرحومة ، فغامت عيناه وغمغم :

— ليتها كانت إلى جوارى اليوم !

وفي تلك اللحظة حطت من السماء الصافية حمامة زرقاء على جانب الطريق وراحت تنقع ظمأها من ماء بركه هناك على استعجال ، وما كاد نيقولاى يثبت فى تلك الحمامة عينيه ، حتى التقطت أذناه صوت عجلات تقترب مسرعة ، واقترب الخادم من مكان سيده وقال : « أحسبهم قادمين »

فقفز نيقولاى بتروفتش واقفاً ، ومد بصره إلى آخر مداه على الطريق الكبير ، فرأى عربة ذات أربع عجلات تقبل مسرعة ، تجرها ثلاثة خيول من جياد البريد ، ثم لاحت من نافذة العربة طائفة من قبعات الطلاب ، ثم صفحة وجه مألوف حبيب إليه ، فصاح نيقولاى وهو يجرى مطوحا ذراعيه فى الهواء :

— أركاشا ! أركاشا !..

وكان هذا هو اسم التدليل الذى ينادى به اركادى !. وبعد لحظات كان يطبع القبلات الحارة على وجنة ابنه الملساء التى لوحتها الشمس ، وعلاها غبار السفر !

وجعل اركادى يضحك مسروراً وهو يرد بالمثل على مداعبات والده وقبلاته ، ثم قال فى صوت لم تستطع متاعب السفر على ما أكسبته إياه من خشونة أن تطمس ما فيه من حيوية ووضوح :

— ألا يحسن أن تنفض عنى ترابى قبل أن تعانقنى هكذا يا أبى ؟ انظر !. لقد كسوتك حلة من التراب سابغة !

فأجابه نقولاى بتروفتش بابتسامة مطمئنة ودود ، وهو ينفض الغبار براحته فى خبطتين متلاحقتين على ياقة ولده الزرقاء ، ثم عن معطفه هو قائلا :

— ليس لهذا خطر ، ولا منه بأس ، تعال من هنا ، من هنا ، وعما قريب يكون قد تم اعداد الجياد !

وكان ظاهراً أن جيشان انفعالات الوالد كان يفوق جيشان ولده الشاب ، فهو كثير التأتأة والفأفأة ، وما أكثر ما كان يفتقد اللفظ المناسب فلا يواتيه ، إلى أن كفه اركادى عن ذلك الحرج والاندفاع قائلا :

— أبى ، أتح لى الفرصة أولا كى أقدم إليك صديق الكريم بازاروف ،

وهو الزميل الذى طالما أطنبت فى الاشارة إليه والاشادة به فى رسائلى اليك ، وقد شاءت مكارمه أن يأتى لزيارتنا !

فدار نقولاى بتروفتش على عقبيه دورة كاملة ، واقترب من رجل طويل القامة عليه معطف طويل سابغ ، له حزام ذو شرابة وزركشة ، كان قد هبط لتوه من العربة ، ثم شد نقولاى على يد الغريب الحمراء العارية التى مدها نحوه بعد لحظة توقف يسيرة ، وحياه مرحباً به قائلا :

— إنى سعيد حقيقة برؤيتك ، وممتن حقيقة لتفضلك علينا بهذه الزيارة ، وأعنى أن تكون ... ولكن هل لى أن أسأل أولا عن اسمك ؟

فأجابه الزائر فى مقاطع بطيئة ولكنها ناطقة بالرجولة ، وقد ثنى ياقته فانكشف وجهه أكثر من ذى قبل :

— اسمى الجينى فاسيليف !

وكانت تقاطيع وجهه طويلة ، نحيلة ، وجبهته عالية ، مسطحة فى أعلاها ، بارزة عند التقائها بالأنف ، وأما عيناه فواسعتان ضاربتان إلى الخضرة ، وعلى عارضيه سالفان ضاربان إلى الصفرة ، فهما أشبه بالرمال فى لونهما ، فاذا أشرقت تلك الملامح بابتسامة ، نم ذلك الوجه عن ثقة بالنفس وألمعية !

واستطرد نقولاى بتروفتش قائلا له :

— إنى لأرجو ياعزيزى الجينى فاسيليف ألا تجد الحياة مملة هنا وأنت مقيم بين ظهرانينا ، فلا تدرى ماذا تصنع للترفيه عن نفسك !

فلم يزد بازاروف على أن رفع قبعته شاكراً ، فبانت من تحت خصلات شعره المختلط اللون تضاريس دماغه الكبير ، والتفت نقولا إلى ولده اركادى قائلا :

— الآن يا اركادى ، هل نسرج الخيل فوراً ، أوتراك تؤثر الراحة قليلا قبل ذلك ؟

— بل نستريح حين نصل إلى البيت

ثم صاح والده بخادمه بطرس أن ينشط إلى اسراج الجياد ... وكان بطرس خادما مدربا مهذبا ، فلم يصافح السيد الصغير مهنئاً فى شوق ، بل اكتفى بأن

حتى رأسه عن بعد ، ثم اختفى وراء بوابة الفناء !

وشرب اركادى جرعة ماء من اناء أصفر قدمه له ناظر المحطة ، أما بازاروف فأشعل غليونه ، واتجه نحو السائس كمن يرقبه فى عمله ، فانتهز نقولاى الفرصة وقال لولده :

— إن عربتى التى حضرت بها لاتسع سوى اثنين ، فلست أدرى الآن ماذا أصنع بصاحبك هذا الذى نزل علينا من السماء ؟!

— انه يستطيع ركوب العربة الكبيرة التى حضرنا بها ، ثم أرجو منك ألا تستشعر شيئا من الحرج أو الرسميات مع صاحبى بازاروف ، لأنه وإن كان رائعاً ألمعياً ، الا انه بسيط جداً فى مسلكه ومظهره ، كما سترى بنفسك!

وإن هى إلا دقائق حتى كانت جياد العربتين قد أسرجت ، فركب الأب والابن العربة الصغيرة ، وركب العربة الأخرى ضيفهما ، ثم تحرك الموكب !



ضرب نقولاى بتروفتش بيده على ركبة أركادى ، ثم على كتفه مسروراً وقال :

— حينما أفكر فى أنك تخرجت الآن ، وعدت أخيراً الى بيتك ظافراً فانى أشعر بالسرور ...

— وكيف عمى ؟ أهو بخير ؟

وكان واضحاً أن سبب هذا السؤال أن الشاب وإن أفعم بالسرور الذى يوشك أن يكون سروراً صبيانياً لعودته الى كنف الأسرة ومسقط رأسه ، إلا أنه أحس فى أعماقه إحساساً غريزياً بأنه من الخير أن يقتصد فى ذلك الحديث الانفعالى ، وأن يوجه الكلام مع والده وجهة أكثر واقعية واتزاناً . وأجابه أبوه قائلا :

— عمك بخير حال ، والواقع أنه كان قد أعد عدته للحضور معى لملاقاتك ، ولكنه عدل عن ذلك فى اللحظة الأخيرة !

— وهل طال انتظارك إياى هنا ؟

— نحو خمس ساعات !

فصاح اركادي وهو يميل نحو والده فيطبع على خده قبلة حارة :

— يا لوالدى العزيز !

فابتسم نقولاى بتروفتش ابتسامة هادئة وقال :

— لقد اشتريت لك حصاناً فارهاً ستراه الآن ، وأعدنا تأثيث حجرتك أيضاً . !

— وهل هناك حجرة لبازاروف أيضاً ؟

— سنعد حجرة له على كل حال !

— أوه ! . وأرجو أيضاً أن تراعوا اعتدال مزاجه وموافقة هواه قدر المستطاع ، فانى عاجز عن التعبير لك عن مقدار اعتزازى بصداقته !

— ولـكنك لم تعرفه منذ مدة طويلة ، أليس كذلك ؟

— الواقع أنى لم أعرفه من مدة طويلة !

— ذلك ما قدرته ، لأنى لا أذكر أنى رأيته فى بطرسبرج فى الشتاء الماضى . وما هى مادة اختصاصه على وجه التحديد ؟

— العلوم الطبيعية . ولـكننى أصدقك الخبر إذا قلت لك إنه يعرف كل شىء على وجه التعميم ، وأنه سيغدو طبيباً فى السنة القادمة !

— آه ! هو إذن طالب فى كلية الطب ؟

وساد الصمت بعد ذلك لحظة ، إلى أن لمح نقولاى بضع عربات تسير فى طريق جانبي ، فأشار إليها بيده قائلا لخادمه بطرس :

— أليس هؤلاء من فلاحينا يا بطرس ؟

— بلى . . إنهم منهم . . .

— وماوجهتهم ؟. أإلى المدينة ؟

— نعم . . . أو إلى الحانة !

فالتفت نقولاى الى ولده وقال له وهو يهز رأسه أسى :

— لقد أتعبنى الفلاحون كثيراً فى هذه السنة . . وأصروا على عدم دفع الايجار . فماذا أصنع معهم ؟ لست أدرى !

— هل أنت راض عن أجرائك الذين تكتريهم يوما يوما ؟

— ليس كل الرضى . فقد فسد الجميع مع الأسف !. ويخيل إلىّ أن حمية القوة فارقتهم فجف نبع نشاطهم الى العمل ، فصاروا يتركون الأرض بغير حرث ولا عزق . أتهتم بالفلاحة ؟

فراغ اركادى من هذا السؤال بأن قال لأبيه :

— الحق أننا أحوج ما نكون هنا الى شيء من الظل !

— أجل ! ولكنني أضفت في هذه السنة « تندة » الى الشرفة البحرية ، بحيث صار من الممكن الآن أن نتناول وجبات الطعام هناك ، في الهواء الطلق!

— آه . ما أطيب الهواء في هذا الموضع ! وما أجمل ريحه وشذاه ! وإني لأرى كل شيء هنا ذا عطر لا مثيل له في غيره من المواضع . والسماء هنا كذلك ما أروعها !

ولكن اركادى لم يلبث بعد ذلك أن التفت الى العربة الاخرى فرمقها بنظرة لزم بعدها الصمت ، إلى أن عقب والده على كلامه بقوله :

— إني أوافقك على ما تقول ، والسبب في ذلك أنك هنا ولدت ، وهنا درجت ، ومن شأن ذلك أن يجعل لهذه البقعة لديك معنى خاصاً !

— ولكن يستحيل أن يكون لمسقط رأس الانسان معنى خاص يا أبي !

— أحقاً ؟

— كلا . وعلى الاطلاق

فرمق نقولاى بتروفتش ابنه بنظرة خاطفة ، ثم ساد الصمت بينهما مقدار نصف فرسخ ، درجته العربة دون أن يتصل بينهما الحديث حيث انقطع ، وأخيراً قال نقولاى بتروفتش كأنما ليشق حجاب ذلك الصمت :

— لست أذكر هل كتبت اليك أن مرضعتك العجوز ايجوروفنا قد ماتت ؟...

— ماتت ؟. يا للعجوز المسكينة !. ولكن هل لا يزال بروكوفتش حياً ؟

— نعم ، ولم يتغير فيه شيء ، فهو كثير الزمجرة كعهدك به ، وستجد أنه لم يقع شيء ذوخطر في « مارينو » منذ غادرتها !

— وناظر الزراعة ؟

— لقد عينت ناظراً جديداً ، لأنني تحققت استحالة الاحتفاظ بالعتقاء بعد تحررهم ، فهم ليسوا أهلا للثقة في المهم من الأمور !

وأشار اركادى بعينيه ناحية «بطرس» الخادم ، الجالس بجوار الحوذى فقال نقولاى بتروفتش بالفرنسية :

— هذا ؟. إنه عتيق طبعاً ، ولكنه خادمى الخاص . أما نظارة الزراعة فعمل له خطره ، ولا آمن عليه عتيقاً ، ولهذا عينت ناظراً ينتمى الى طبقة التجار ، براتب سنوى مقداره مائتان وخمسون روبلا ، وهو كفء فيما يلوح للعمل .. ولكن ...

ثم توقف نقولاى فلم يتم عبارته ، وراح يعبث بأنامله في مقدم رأسه وجبهته ، وهى حركة تنم لديه دائماً عن اضطراب داخلى وحيرة ، ثم استطرد بعد قليل :

— .. الواقع أننى وإن كنت قد ذكرت لك الآن أنك لن تجد تغيراً مذكوراً في الدار والضيعة ، إلا أن ذلك ليس صحيحاً بحذافيره كل الصحة ، فمن واجبى أن أصارحك ، وإن كانت صراحتى هذه قد يراها بعض المتزمتين غير لائقة ، إلا أنه ينبغى ألا أخفى عليك أن لى آرائى الخاصة فيما ينبغى أن يسود الأب وولده من العلاقة الوطيدة .. و .. و .. المسألة بالاختصار تتعلق بالفتاة التي ربما تكون قد سمعتنى أجرى حديثها على لسانى ..

— أتعنى تنيشكا ؟

فاحتقن وجه نقولاى بتروفتش بحمرة الخجل وقال هامسا :

— لا تذكر اسمها بصوت مرتفع هكذا . نعم ، إنها تعيش معنا الآن ، وقد فعلت ذلك لأن حجرتين من حجراتنا كانتا خاليتين ، أما الآن وقد حضرت وصاحبك ، فلابد من تغيير الأوضاع مرة أخرى !

— ولماذا تغيرها يا أبتاه ؟

— لأن صديقك هذا سيحتاج الى حجرة ينام فيها ... ثم لأن الوضع الراهن محرج .!

— لا تكلف نفسك شيئا من أجل بازاروف ، فهو أسمى من هذه

الأمور ، ثم لا تظنن يا أبي أنك ملوم ، فلا جناح عليك في شيء !

وساد الصمت بعد ذلك برهة أخرى ، وقد تضرج وجه نقولاى ، الى أن بدأت حدود أملاكه ، فانتهز تلك الفرصة وأشار اليها منبها اركادى ، فقال اركادى :

— نعم ، وهذه غابتنا في مواجهتنا فيما أعتقد !

— أجل !. ولكنى بعتها ، وسيقطعونها هذا العام !

— ولماذا بعتها ؟

— لأنى بحاجة الى المال . ولكى أوزع أرضها على الفلاحين بالايجار !

— على هؤلاء الذين لا يدفعون لك الايجار ؟

— إن لم يدفعوا عاما ، فسيدفعون في الذى يليه !

— لقد أحزننى فقدان هذه الغابة !

ثم استغرقه المنظر المنبسط تحت ناظريه ، وإن كانت فيه رتابة مملة ، فليس ثمة إلا حقول منبسطة من وراء حقول ، تتخللها أجمة قليلة الشجر ، وأكواخ من الطين أو الآجر منخفضة السقوف ، متداعية البناء ، أومقابر عليها صلبان من أفرع الشجر أوشكت أن تتهاوى في مهب الريح كما تهاوى ساكنوها تحت ضربات معول القدر ، فانقبض لتلك المناظر صدر اركادى ، وغشيته من ذلك كآبة . وزاد في تلك الكآبة التي نضحت بها الطبيعة الصامتة ، مرور فلاحين في أسمال بالية ، ووجوه هزيلة وأجساد ضاوية ، فوق دواب أنهكها الجوع ، ونال منها الكلال ، فكل شيء ينطق بالفقر وسوء الحال . . حتى البقرات التي ترعى العشب المتناثر على أطراف الحقول كانت عجافا لا يرتفع لها خوار ، فلا عجب ألا يكون للربيع في المكان بهجته المألوفة في سائر البقاع !

وأخرج اركادى نفسه من تلك الخواطر الصامتة ، قائلا لنفسه :

— لعمرى ليست على الأرض هنا سيماء الغنى والخصوبة ، ولا سيما العمل البشرى الجاد ، فهى كزة بطبعها ، والعاملون فيها ضنينون بالخدمة والرعاية . فهل نتركها هكذا ؟. كلا ! بل لابد من « تربية » أساسية شاملة لأهلها . ولكن كيف نبدأ تلك التربية ، وأى نهج ننتهجه لها ؟. تلك هى المسأله !

وأقبلت العربة على مرتفع من الأرض ، فقال نقولاى وقد نضح وجهه بشراً ، ونضا عنه عباءة سفره فى فرح كفرح الوليد بثدى أمه :

— عندما نبلغ ذروة هذا المرتفع سيتبدى لنظرنا بيتنا !. ألا ما أحلى الأيام التى سوف نمضيها معا يا اركاشا !.. فانك سوف تعيننى على إدارة الضيعة ، إذا راقك ذلك ، وسنزداد قربا وتواصلا ، وتزداد معرفة كل منا بصاحبه توثقاً

— أجل يا أبتاه ! وما أجمل الطقس !

— نعم ، فقد اتفق مقدمك إلى الدار ومقدم الربيع فى هالة بهائه ورواثه .. وإن كنت قد لا أقر بوشكين على قوله فى الربيع ، من قصيدة له :

« ما أحزننى بمقدمك أيها الربيع ! يا أوان الغرام !. »

وفى هذه اللحظة دوى من العربة الأخرى صوت بازاروف قائلا :

— يا اركادى .. أرجو أن تبعث إلى عود ثقاب أوعودين ، فليس عندى ما أشعل به غليونى

فكف نقولاى عن الاسترسال فى إنشاد الشعر ، وانتزع اركادى نفسه من الاصغاء ، وأخرج من جيبه صندوق ثقاب فضى أرسله إلى بازاروف على يد بطرس ، فقال بازاروف عندما بلغه الصندوق :

— هل لك فى سيجار يا اركادى ؟

— هات !

فعاد بطرس إلى سيده الشاب بسيجار سمين مع صندوق الثقاب ، فأشعل اركادى السيجار بتلذذ ، وراح ينفث حوله سحائب من الدخان القوى الرائحة ، حمل نقولاى — وهو الذى لم يعرف التدخين فى حياته قط — على أن يحتال لسد خياشيمه دون أن يرى اركادى تلك الحركة ، حرصاً منه على شعور ولده !

وبعد ربع ساعة ، وصلت العربة إلى درج بيت حسن ، مشيد بالخشب ، جديد الطلاء ، رمادى اللون ، ذى سقف أحمر من صفائح الحديد ، وكان هذا البيت هو « مارينو » مقر آل بتروفتش !

لم يتوجه إلى الشرفة لاستقبال القادمين جمع من الخدم والعبيد كما كان الشأن فى العهد الماضى ، بل كانت هناك فتاة صغيرة واحدة ، فى الثانية عشرة

من عمرها ، ثم لحق بها بعد لحظة شاب شديد الشبه بالخادم بطرس ، عليه كسوة رمادية لها أزرار فضيــة ، وذلك الشاب هو خادم أكبر الشقيقين ، بول بتروفتش كير سانوف ، وفي صمت فتح ذلك الخادم بابي العربتين ، فهبط السادة الثلاثة ، ودخــلوا الدار حيث اجتازوا بهواً معتما عاريا من الأثاث ـ وقد اختلست اليهم النظر من باب حجرة تفضي إليــه عينا امرأة شابة ـ ثم دخلوا حجرة استقبال مؤثثة على أحدث طراز

وقال نقولاى بتروفتش وهو ينزع قبعته ويطوح شعره إلى الخلف :

ـــ لنتناول العشاء ، ثم نبادر إلى الفراش .!

فقال بازاروف وهو يستلقي متثائبا على أريكة وثيرة :

ـــ مرحباً بالطعام ! ثم مرحباً بالمنام !

ـــ سآمر باعداد المائدة فوراً .. وهاهو ذا بروكوفتش .!

وظهر رجل في الستين من عمره ، أبيض الشعر ، نحيل الملامح ، عليــه سترة ذات ذيل لها أزرار نحاسية وياقة قرمزية ، فابتسم هاشا وهز يد اركادى ، ثم انحنى للضيف ، وتراجع إلى الباب ، حيث وقف ويداه خلف ظهره ، فقال نقولاى :

ـــ ها هوذا السيد الصغير قد آب يابروكوفتش إلى بيته أخيراً ، فكيف تراه قد أصبح الآن ؟

ـــ بخير حال ، بخير حال !.. والآن هل أمد الخوان ؟

ـــ إذا سمحت.. إذا سمحت .!

ثم التفت نقولاى إلى بازاروف وقال :

ـــ أتحب أن تذهب إلى حجرتك قبل العشاء ؟

ـــ كلا وشكراً لك . ولــكن أرجو أن توضع فيهــا حقيبتي ، وكذلك هذا المعطف

وخلع بازاروف معطفه ، فتناوله الســاقي العجوز بروكوفتش بشيء من الأنفة ، ومشى به ممسكا به بكلتا يديه أبعد مايكون عن ملابسه ، وغادر الحجرة على أطراف قدميه كالحاذر ... والتفت نقولاى إلى ابنه قائلا :

— وأنت يا اركادى ؟. ألا تحب أن تذهب إلى حجرتك ؟

— نعم ، فانى أريد أن أغتسل قبل الأكل !

وعندئذ انفرج الباب عن رجل متوسط الطول ، عليه حلة انجليزية قاتمة ، وياقة منخفضة على أحدث زى ، وحذاء من الجلد اللامع . وكان هذا الرجل هو بول بتروفتش كيرسانوف . وهو وإن لم يتجاوز الخامسة والأربعين قد أحال المشيب شعره القصير إلى صفحة من الفضة اللامعة . أما ذقنه فحليق ناعم، وفى ملامحه دقة ووسامة كأنها نقشت بأزميل فنان بارع فى كتلة من المرمر الناصع .. وفى عينيه اللوزيتين الداكنتين بريق أخاذ ، وفى منظره العام ماينم عن اعتزاز بالنفس وإباء وترفع ، وتعود الأمر والنهى والسلطان ! .

وأخرج القادم من جيب بنطلونه يداً ممشوقة زاد فى رشاقتها وبضاضتها احمرار أظافرها المشذبة ، فمدها إلى ابن أخيه على الطريقة الغربية ، ثم أردف ذلك بقبلات ثلاث طبعها على وجنته على الطريقة الروسية . وقام نقولاى بتقديم بازاروف إليه ، فافتر وجهه عن ابتسامة يسيرة ، ولم يمد إلى الشاب يده ، بل أعادها إلى جيبه وقال لابن أخيه :

— لقد بدأت أعتقد أنك لاتنوى الحضور .. ماذا حدث لك ؟

— لاشىء !. فكل ماهنالك اننا تسكعنا قليلا ، ولهذا السبب نشعر الآن بجوع شديد ، كالذئاب الضارية ، فأرجو أن تأمر بروكوفتش بالاسراع يا أبى ، وسوف أعود بعد لحظة يسيرة !

وهم بالخروج فلحق به بازاروف وخرج معه ، فقال بول لأخيه :

— انه صديق من أصدقاء اركادى ، وهو على قوله من أهل الفكر ..!

— وهل سيمكث هنا ؟

— أجل .!

مخلوق طويل الشعر على هذا النحو ؟

— طبعاً .!

فسكت بول عندئذ على مضض . ثم لم يلبث الجميع أن جلسوا إلى المائدة ، فلم يشجر حديث ذو بال ، وأكل بازاروف بنهم ، وأما بول فكان يذرع الحجرة

صامتاً ، لأنه لم يكن يتناول طعام العشاء مطلقاً ، وهو يحتسى رشفات من الخمر فى كأس دقيق،وهو يطلق همهمات غير واضحة بين الحين والحين ، كمن يحدث نفسه بشيء ، أو يسترجع صوراً من صحائف الماضى . وأما اركادى فكان يدلى ببعض ما اتفق له من أخبار بطرسبرج ، ولكنه كان حديثاً فاتراً ، لشعور الشاب بالحرج لأنه عاد إلى مدرج طفولته ومرباه وقد عدا دور الطفولة وشب عن الطوق ، فحديث الشباب عليه هنا كالثوب الجديد ليست له به ألفة . وقد جره ذلك إلى احتساء قدر من الخمر أكبر مما يتناوله فى العادة ، حتى دارت رأسه.وكان الساقى العجوز بروكوفتش لا يحول بصره عنه إلى أن انتهى الطعام

ولما اختلى الصديقان فى مخدع اركادى ، جلس بازاروف يدخن غليونه إلى جوار فراش صاحبه ، ثم قال له :

— انى أرى عمك هـذا غريب الأطوار .. فما كل هذه العناية بالأناقة والهندام فى قلب الريف ؟. انه ليفوز بجائزة على تقليم أظافره وحده !

— انك لا تعرفه ، فقد كان فى شبابه زير نساء ، وسأقص عليك قصته يوماً ما ، فكم من امرأة أطارت وسامته صوابها !

— أستنتج من هذا أنه لم يبق له ما يعيش عليه إلا ذكرياته ، فليست فى هذا المكان من يأسرها بملاحته وزينته ، فلعمرى لم أر فى حياتى ياقة ألمع من ياقته ، ولا ذقناً أنعم من ذقنه الحليق .. ولكن ذلك كله يبدو سخيفاً فى هذه البيئة !

— ربما ... ولكنه هو نفسه شخص طيب !

— طبعاً طبعاً !. ملك فى صور بشر . وكذلك والدك ..!

— إن له قلباً من ذهب !

— ألاحظت يا اركادى توتر أعصابه الليلة ؟

— أجل ..!

— ما أشد خوركم أيها العصابيون العاطفيون ! . والآن ، طاب ليلك



« وظل « بول بتروفتش » ساهراً فى مكتبه ، وبين يديه صحيفة لا يكاد يقرأ فيها شيئاً »

وسرعان ما استغرق كل من الشابين فى النوم فى مخدعه الخاص به ، ولكن نقولاى بتروفتش لم يوفق الى النوم سريعاً بسبب ما أحدثته عودة وحيده من إثارة ، وكذلك شقيقه الأكبر بول ظل ساهراً فى مكتبه الى قرب منتصف الليل ، غير متخل عن ثيابه الكاملة ، وبين يديه صحيفة لا يكاد يقرأ فيها شيئاً على مداومته التحديق فيها ، فقد كانت خواطره بعيدة كل البعد عن ذلك المقعد الوثير ، وتلك المدفأة الرخامية ، التى تتراقص فيها نار يسيرة اللهب !

وفوق صندوق فى حجرة صغيرة بمؤخرة البيت ، جلست فتاة ترتدى ثوباً أزرق ، وفوق شعرها الفاحم منديل حريرى أبيض ، وكانت تلك الفتاة هى تنيشكا . وكانت فى جلستها تلك تديم الإنصات والتسمع ، وهى تتلفت عند كل حركة الى باب مفتوح كان يبدو منه مهد طفل رضيع نائم ، يرتفع منه صوت تنفسه العميق !



حياة ضائعة

وكان بازاروف أسبق من فى الدار إلى اليقظة والخروج فى اليوم التالى ، وقد أخذ ينظر إلى ما حوله نظر الفاحص ، ثم قال يحدث نفسه :

— ليس هذا بالمكان الذى يروع الناظر ، أو يروق المستريض !

وكان نقولاى حين قسم الأرض بين الفلاحين المستأجرين قد أحاط مسكنه بمساحة من الأرض القاحلة المنخفضة السطح ، فبنى على رقعة منها مسكناً للخدم ، ومخزناً لأغراض البيت ، وجعل الباقى بستاناً ، احتفر فيه بركة وبئرين ، ولكن الشجيرات لم تجد من أمها الأرض ما يكفيها لتنبت نباتاً حسناً ، اللهم إلا بضع أشجار من السنط امتدت فروعها فصارت ظلا حسناً يتناول فيه أهل البيت الشاى أو الغداء فى بعض الأيام ، إذا راق الجو وصفت السماء !

وفى بضع دقائق كان بازاروف قد اخترق ممرات الحديقة ومماشيها ، وتفقد إسطبلات الجياد وحظائر الماشية ، وعقد أواصر الصداقة مع خادمين من الطلقاء صادفهما فى طريقه ، وسرعان ما استغرق معهما فى صيد الضفادع من مستنقع يبعد عن البيت مقدار فرسخ ، فلما سأله أحدهما : « لماذا تريد هذه الضفادع ياسيد ؟ » . قال مجيباً :

— أريدها لأمر تصلح له وتغدو ذات نفع ، فأنى أفتح أجوافها ، ثم أنظر فى داخل حشاها لأرى كيف تعمل تلك الأحشاء وعلى أى صورة . وما نحن ، أنا وأنت ، إلا ضفادع تسير على قائمتيها الخلفيتين ليس غير ، فمن شأن تلك العمليات التي أستحدثها للضفادع أن تعيننى على فهم ما يحدث فى داخل أجوافنا !

— وماذا تجنى من وراء ذلك ؟

— هاك ما أجنى : إذا مرضت أنت ، وعهد إلى بعلاجك ، جنبتنى تلك

المعرفة بأجواف الضفادع ألوانا من الزلل في علاج جوفك !

— أنت إذن طبيب ؟

— نعم !

— ما أعجب هذا !. نحن كالضفادع !



وغادر نقولاى فراشه فبادر بالتوجه إلى مخدع اركادى،فوجده قد ارتدى كامل ثيابه ، فخرجا معا إلى الشرفة البحرية وجلسا في ظل التندة ، وإلى جوارهما فوق مائدة صغيرة أدوات الشاي يصدر عنها ذلك النشيش المعهود حين يغلي الماء . ولم تلبث بعد قليل أن ظهرت تلك الآنسة الصغيرة التي كانت في استقبال القادمين في الليلة السابقة عند الباب ، فقالت بصوت مختلج :

— تيودوزيا نيقولا يفنا ليست على مايرام هذا الصباح ، ولهذا فهي لن تستطيع الحضور لتناول الافطار . وقد كلفتني أن أسألكم هل تحبون أن تصبوا الشاي لأنفسكم ، أو ينبغى أن تبعث إليكم بدونياشا لتقوم بتلك المهمة ؟

فأسرع نقولا بتروفتش يجيبها :

— سأصبه بنفسي . أتريد القشدة أو الليمون في قدحك ياأركادى ؟

— قشدة

وسكت اركادى لحظة ثم قال : « أبتاه ! »

فنظر نقولاى بتروفتش ناحيته بارتباك مستفسراً،فغض اركادى بصره وقال:

— اغفر لي يا أبي سؤالا ربما بدا لك أن فيه فضولا ، ولكن يطمعنى في ذلك ما بدا من صراحتك في الليلة الماضية ، فأرجو ألا تغضب

— كلا . أفصح عما في نفسك

— أحب أن أسألك ، هل وجودى هو الذى ... أعنى أن تنيشكا قد أحجمت عن الحضور لتناول الافطار معنا بسبب وجودي ؟

— ربما . فهي على كل حال تفضل ... أعنى أنها خجول

— ولكن لماذا هذا الخجل ؟. فأنت أولا تعرف وجهة نظري في هذه

المسائل . وأنت بالطبع تعلم ثانيا أنني لا يمكن أن أتدخل بمقدار أنملة واحدة في حياتك الخاصة وعاداتك . وإني واثق بأنك لا يمكن أن تسيء الاختيار ، فما دمت قد طلبت من هذه الفتاة أن تقيم تحت سقفك ، فلا شك أنها إذن جديرة بذلك حقيقة به . ثم انه ليس للابن على كل حال أن يدين أباه ، ولاسيما إذا كان الابن مثلي له والد مثلك لم يحاول يوما من الأيام تقييد حرية ابنه في أي شيء من تصرفاته !

— أشكرك كثيراً يا اركادي . ولست في الواقع مخطئا في ظنونك وتقديراتك . فلو لم تكن تلك الفتاة ذات جدارة ما دعوتها طبعا إلى الاقامة في جناحنا ، فلم يكن ذلك نزوة قائمة على نزق ورعونة . وما كنت لأفاتحك في الأمر ابتداء لولا أنني قدرت أنها ستجد حرجا في ملاقاتك غداة وصولك !

— إذن أذهب أنا لملاقاتها !

وقبل أن يسمع جواب أبيه ، كان قد انطلق من الشرفة ، ونقولاي بتروفتش يحدق في آثاره مأخوذاً ، وقد تسارعت دقات قلبه ، وراحت صورة العلاقات المستقبلة بينه وبين ولده تتراءى أمام عين مخيلته غريبة ، وساوره مزيج من الندم والخجل والارتياح لسعة أفق ابنه !

وإن هي إلا دقائق حتى سمع وقع أقدام ابنه عائداً ، ثم لم يلبث أن دخل عليه الشرفة وهو يهتف به متهلل الوجه :

— لقد تعرفت بها . وتأكدت أنها على غير ما يرام ، ولكنها مع ذلك ستبرز إلينا بعد قليل . ثم لماذا لم تخبرني أن لي أخا صغيراً ؟. لو كنت أعلم لذهبت إليه وقبلته في الليلة الماضية كما فعلت الآن !

وحاول نقولاي بتروفتش أن يقول شيئا ، يفسر به الظروف والموقف ، غير أن اركادي حال دون ذلك بأن وقع على عنقه ، وإذا صوت بول بتروفتش من خلفهما :

— ماذا ؟ أمعانقة جديدة ؟. أما تفرغان من العناق ؟

فارتاح لظهوره الوالد والولد ، لأنه أخرجهما من ذلك الموقف الدقيق ، وقال نقولاي :

— وماذا يدهشك ؟ تذكر أنى لم أر اركاشا (اسم التدليل لاركادى) منذ أجيال ، أو على الأقل منذ أمس !

— ليس فى ذلك ما يدهشنى ، بل إنى على العكس لا مانع عندى شخصيا من عناقه

وقرن القول بالعمل ، ثم جلس الى المائدة ، بيذلته الأنيقة ، الانجليزية التفصيل ، وقد جعل فوق رأسه طاقية صغيرة لطيفة الشكل ، وكان قد بكر فى حلاقة ذقنه كعادته كلما أصبح وقال لأركادى : « أين صديقك الجديد يا أركادى ؟ »

— لقد خرج الى موضع ما . فهو يحب الخروج للرياضة فى الصباح الباكر . ولكن يحسن ألا تلق البال إليه ، فهو لا يحب المراسم والقيود !

— ذلك ما لاحظته . وهل سيمكث هنا طويلا ؟

— طالما راق له ذلك . والواقع أنه مزمع أن يذهب الى دار أبيه

— وأين يعيش أبوه ؟

— مسافة ثمانين فرسخاً من هنا ، فلوالده ضيعة صغيرة ، وقد كان فى سالف زمانه طبيباً من أطباء الجيش !

— آه . منذ أمس وأنا أسأل نفسى أين سمعت اسم بازاروف من قبل . ألا تذكر يا نقولاى أنه كان هناك طبيب بذلك الاسم فى فرقة والدنا ؟

— نعم . كان هناك طبيب بذلك الاسم فى الفرقة !

— إذن فهو والد هذا الشخص !

ثم جعل يفتل شاربه لحظة ، واستطرد مخاطباً أركادى :

— وما هو صاحبك بازاروف بالضبط ؟

فابتسم اركادى وقال لعمه : « ما هو ؟.. أتريد حقيقة أن أخبرك ما هو يا عماه ؟ »

— إذا سمحت يا ابن الأخ !

— إنه « عدمى »

— ماذا ؟

— « عدمی »

— عدمی ؟ يخيل إلىّ أن هذا الاسم نسبة الى العدم ، أى لا شيء . وتطلق فيما أعتقد على الشخص الذى يرفض الاعتقاد بكل شيء . أو يرفض احترام أى شخص على الاطلاق !

— كلا ! . بل على الشخص الذى يتناول الأشياء من وجهة نظر نقدية ليس إلا !

— كلاهما شيء واحد . أليس كذلك ؟

— كلا ! . فالعدمى شخص يرفض الخضوع للسلطة ، أو قبول أى مبدأ عن تسليم وبغير فحص ، مهما تكن قدسية ذلك المبدأ !

— والى أين يقودنا ذلك ؟

— هذا يرجع الى الشخص نفسه . فربما كان ذلك سبباً فى الخير ، وربما قاد ذلك نفراً من الناس الى الوبال !

— فهمت ! . ولكننا نحن الشيوخ ننظر الى الأشياء نظرة أخرى ، ونعتقد أنه يستحيل أن نخطو خطوة واحدة فى الحياة ، أو نستنشق نفساً من أنفاسها بغير مبدأ . ولكنكم أيها الناشئة قد غيرتم ذلك كله ، منحكم الله الصحة والعافية والمنصب الرفيع أيها السادة العدميون ! ولكن لا تنسوا أن تبينوا لنا كيف يمكنكم أن تعيشوا فى فراغ مطلق وخلاء خاو حتى من الهواء . وأرجو منك يا شقيق نقولاى أن تجذب الجرس ، لأنه قد آن لى أن أتناول قدحى من الكاكاو !

فصدع نقولاى بتروفتش بالأمر ، وأردف ذلك بأن صاح منادياً دونياشا ، ولكن دونياشا لم تحضر ، وبرزت عوضاً عنها الى الشرفة تنيشكا بلحمها ودمها ، فاذا امرأة شابة فى الثالثة والعشرين من عمرها شاحبة ، لطيفة المحيا ، لها عينان سوداوان وشعر فاحم ، وشفتان حمراوان مقلوبتان كشفاه الأطفال ، ويدان رقيقتان . وكانت ترتدى ثوباً نظيفاً من القطن ، وقد أحاط بكتفيها المدورتين منديل أزرق جديد ، وفى يدها قدح كبير من الكاكاو ، وضعته على استحياء أمام بول بتروفتش ، فتضرجت وجنتاها الأسيلتان بحمرة الخجل

فزاد ذلك محياها لطافة فوق لطافة ، ثم لبثت واقفة بجوار المائدة غضيضة الطرف ، وقد مست أناملها صفحة المائدة . وكانت تجمع فى هيئتها بين نقيضين : ما يشبه الخجل من الحضور والظهور ، وما يشبه الحق فى الحضور والظهور ، فكأنها مترددة بين حالها ، أن تحتل مكانها بين السادة أو ترتد الى مكانها دون ذلك !

وقطب بول بتروفتش حاجبيه ، أما نقولاى فظهرت عليه الحيرة وغمغم :

— طاب صباحك يا تنيشكا !

فأجابته بصوت خفيض رائق : « طاب صباحك ! »

ورمقت أركادى بنظرة من جانب العين ، فهش لها فى مودة ، وعندئذ انصرفت بخطى هادئة . وساد الصمت الشرفة ، فانصرف بول بتروفتش الى احتساء قدحه ثم رفع رأسه فجأة وغمغم :

— إن السيد العدمى يوشك أن يمن علينا بطلعته !

وصدق حدسه ، فقد رأوا بازاروف مقبلا بين أحواض الزهور وقد اكتست سترته وبنطلونه بغلاف من الطين ، وكانت فى يده غرارة صغيرة بداخلها شيء يضطرب بالحياة ، فاقترب من الشرفة بخطوات واسعة وهز للثلاثة رأسه محيياً وهو يقول :

— طاب صباحكم يا سادة ! . اغفروا لى هذا التأخير ، فسأعود إليكم حالا ، ولكن يجب أن أعثر بقناصى أولا . !

فقال له بول بتروفتش : « ما هى هذه القنائص ؟. دود الطين والعلق ؟ »

— كلا !. بل ضفادع !

— وهل تأكلها أو تراك تربيها وتزاوج بينها ؟

فأجابه بازاروف بغير اكتراث وهو يدلف الى داخل البيت :

— إنى أقنصها لأغراض تجريبية !

— يعنى يشرحها . وبعبارة أخرى انه يؤمن بالضفادع أكثر مما يؤمن بالمبادىء ؟

فرمق اركادى عمه بنظرة عاتبة ، وهز نقولاى كتفيه ، فغير بول موضوع

الحديث وصرفه الى الضيعة وناظر الزراعة الجديد !



وعاد بازاروف فاتخذ لنفسه مكانا إلى مائدة الأفطار وطفق يشرب الشاى ، والاخوان يرمقانه فى صمت ، واركادى يردد الطرف بين أبيه وعمه ، وأخيراً سأله نقولاى : « هل مشيت طويلا هذا الصباح ؟ »

فأجاب قائلا : « إلى مستنقع بجوار أجمة من أشجار الحور . ولهذه المناسبة أذكر أنى رأيت خمسة ديوك برية هناك ، وربما يروق لك يا اركادى أن تذهب لاصطيادها ، فأنا لا أحب الصيد ! »

فقال له بول بتروفتش : « معنى هذا أنك تفضل العلوم الطبيعية على كل شيء ؟ » . ولما أجاب بالايجاب ، عاد هذا يقول له :

— لقد سمعت أخيراً أن الألمان تقدموا فى هذا المضمار

— هذا صحيح . فالألمان فى الواقع سادتنا من هذه الجهة !

— هل تحسن الظن كثيراً بالألمان ؟

— إن علماء ذلك البلد قد أظهروا فضلا ونشاطا

— وما رأيك فى علماء روسيا ؟ أحسب أنك أقل إطراءً لهم ؟

— إذا سمحت أن أصارحك بالحقيقة فهذا رأيى !

— هذا تواضع محمود منك ، ولكن كيف يتفق هذا مع أنك لا تعترف بأى سلطة ؟ . لقد ذكر اركادى لنا أنك لا تثق بأى مصدر !

— ولماذا أثق ؟ هل فى الدنيا شيء موثوق به ؟ ولكن إذا رويت لى حقيقة واقعية أقرها ، وهذا فصل الخطاب !

— إذن فالألمان يتحرون الحقائق الواقعية ؟

فتثاءب بازاروف وأجاب كمن لا يكترث بمواصلة الجدل : « ليسوا جميعاً بهذه الصفة ! »

— إنى شخصياً لا أميل إلى الألمان ولا أسيغهم . فقديماً أخرجوا للناس شعراء من طراز شيلر وجيته ، وكلاهما مؤلف أثير عند شقيق نقولاى . أما الآن فالألمان أمة ليس فيها إلا حفنة من الكيميائيين والماديين !

— إن كيميائيا مجيداً خير من عشرة من شعرائكم !

— هل أستنتج من هذا أنك لاتعترف بالفن ، ولا تؤمن إلابالعلم ؟

— لقد قلت لك إننى لا أومن بشىء على الاطلاق . ثم ماهو العلم ؟ قد يقوم علم معين ، كما تقوم صناعة معينة أو حرفة معينة ، ولكن ليس للعلم بوجه التعميم والإجمال وجود !

— هذا جميل !. وهل هذا رأيك أيضاً فيما يتصل بالاركان الأخرى التي لابد منها فى حياة الناس وسلوكهم ؟

فصاح بازاروف فجأة : « ماهذا ؟ أهو امتحان فى العقائد ؟ »

فاكفهر لون بول بتروفتش ، ورأى نقولاى بتروفتش أن يتدخل فى النقاش ليلطف حدته فقال :

— سنمحص هذا الموضوع فيما بعد ، ولكن مع اعترافنا بوجهة نظرك ياعزيزى الجيفى فازيليتش ، سنبين لك وجهة نظرنا .. فأنا مثلا مسرور جداً لأنك من المهتمين بالعلوم الطبيعية . وقد سمعت أن العالم الألمانى ليبج اكتشف جديداً فى مسألة تحسين التربة ، وربما تهيأ لك أن تعيننى فى أعمالى الزراعية بالنصح المثمر !

— سأكون دائما فى خدمتك يا نقولاى بتروفتس . ولكن مالنا وللعالم ليبج ؟ أين نحن منه ؟ ينبغى أن يتعلم المرء حروف الهجاء قبل أن يأخذ فى مطالعة المصنفات . ونحن لم نبلغ بعد فى ذلك المضمار حرف الألف !

— مهما يكن من أمر ، فأرجو أن تأذن لى فى طلب مشورتك من حين لآخر . . والآن يا أخى بول ، أظن الوقت قد حان للاجتماع بناظر الزراعة !

فنهض بول من مقعده وقال غير مخاطب أحداً على وجه التحديد :

— نعم . وإنه لمن المزعج حقاً أن يعيش الانسان خمس سنين فى هذا الريف فيبعد بذلك عن ذوى العقول المفكرة والقرائح النيرة !. ولكن ما العمل ؟. لاشك أن الجيل الجديد أعرف منا بكل شىء ، فلا فائدة من محاولة تعويض مافات وتجديد المعلومات !

ثم دار على عقبيه وانصرف متباطئا ، ومن خلفه نقولاى . فلما أغلق الباب

خلفهما قال بازاروف لاركادى :

— هل يقيم بول بتروفتش هنا بصفة دائمة ؟

— أجل !. والآن اسمع يا الجيني : لقد اصطنعت لهجة مفرطة فى الحدة مع عمى فأسأت إليه !

— ماذا ؟. وهل يراد منى أن أتملق هذين الأرستقراطيين الريفيين ، وإن كان مسلكهما محض غرور وخنوع للعرف والتقاليد ؟. ومع ذلك فلا علينا منهما الآن . ألا تعلم أنى وجدت هذا الصباح نوعا رائعاً من خنافس الماء ؟. سأريك إياه !

— ألم أعدك بأن أقص عليك قصته ؟

— قصة من ؟. خنافس الماء ؟

— كلا !. بل قصة عمى !. وسترى منها على الأقل أنه ليس كما تظن ، وأنه إنسان حقيق بالعطف والرثاء لا بالسخرية والزراية !

— ليس لى ميل إلى المجادلة فى ذلك !. ولكن كيف اتفق لك أن تتعلق به ؟

— لأن الانسان ينبغى أن يكون منصفاً !

— لست أرى علاقة بين الانصاف والتعلق به !

— إذن فاسمع !

وأخذ اركادى يقص على صديقه بازاروف قصة عمه بول بتروفتش كيرسانوف فقال :

« تلقى بول بتروفتش كيرسانوف ، مثله فى ذلك مثل أخيه ، علومه الأولى فى البيت ، ثم دخل كتيبة الوصفاء الامبراطوريين . وكان منذ صباه ممتازاً بالوسامة والثقة بالنفس وروح التهكم التى تعجب الناس . وما حصل على رتبة الضابط حتى راح يتنقل بين الأوساط الاجتماعية الراقية ، متلهياً ، مبذراً المال فى غير مبالاة ، ففتنت به النساء افتتانا شديداً ، وأضمر الرجال له حقداً وحسداً . وكان يسكن طابقاً من بيت للايجار مع شقيقه الذى كان يحبه باخلاص وان لم يشا كله فى شىء !. وأعظم ما كان بين الأخوين من اختلاف فى الطبع

والشكل ، ان نقولاى كان ذا قسمات صغيرة رقيقة تفيض حنانا ، وعينين سوداوين صغيرتين ، محباً للقراءة إلى حد الافراط ، غير محب للحركة والنقلة، ضيق الصدر بالمجتمعات لخجل طبعي فيه ، في حين كان بول لا يقضي السهرة في بيته قط ، وكان كثير النشاط قوي الحيوية ، لا يستقر في مكان ، ولا يصبر على صفحات كتاب ، وكل محصوله من الثقافة العامة لا يعدو خمس روايات فرنسية أو ستا !

« وما بلغ بول الثامنة والعشرين من عمره حتى كان قد حصل على رتبة اليوزباشي ، وانفتح أمامه باب مستقبل باهر . ولكن ذلك كله لم يلبث أن ذهب أدراج الرياح .. فقد كانت المجتمعات الأرستقراطية لذلك العهد في مدينة بطرسبرج تزدان بالأميرة (ر) .. وكان المألوف أن ترى هذه الأميرة في فترات فجائية ، ثم تختفي كما ظهرت على غير انتظار ، ولا تزال لها في بطرسبرج إلى الآن ذكرى باقية . وكانت متزوجة من شخصية كبيرة جداً ، ولكنها لم ترزق نعمة الولد ، ولذلك كانت تمضي وقتها في زيارات فجائية للخارج ، ثم تعود منها فجأة أيضاً . وحياتها في جملتها كلها عجب !. والرأى السائد عنها أنها كانت خليعة لعوبا ، لا تعرف في الحياة سوى طلب الملذات ، فترقص في الحفلات حتى يغمى عليها ، وتضحك وتضاحك الشبان وتمزح معهم حين تستقبلهم ـ وما أكثر ما كانت تستقبلهم قبل الغداء في صالونها الأنيق الظليل الخافت الأضواء حتى إذا أقبل الليل طفقت تبكي وتصلي وتتضرع ، وهي تفرك يديها وتلطم خديها ، وتذرع حجرتها حتى تبرز الشمس من خدرها فترتمي لا حراك بها !.. فاذا ما تقدم النهار بعثت فيها الحياة ، وبرزت للناس بوجهها الآخر ، تعبث وتعابث ، وتضحك وتضاحك ، ولا تتورع عن شيء يدخل على نفسها السرور !

« وكانت إلى هذا فاتنة أشد الفتنة ، وان لم تكن جميلة بمقاييس الجمال الدقيق ، وكان لها شعر كأنه العسجد لونا ونعومة وغزارة ، ينسدل على صدرها أو ظهرها إلى ما تحت الركبتين . أما عيناها فلهما أحيانا نظرات قوية جامحة لا تقف دون شيء ، ولهما أحيانا نظرات خاشعة متفكرة تتعمق بواطن الأشياء ، أو نظرات غامضة محيرة لا تعرف لها غوراً ، ولا تستشف وراءها سراً ...

ويزين ذلك كله ذوق في الهندام ، وجمال في القوام ، وعذوبة في مواقع الأنغام وصياغة الكلام !

« وقد التقى بول بتروفتش بهذه المرأة في مرقص ذات ليلة ، ورقص معها المازوركا . فما انتهت الرقصة حتى كان أمر قلبه قد انتهى ، لأنه أسلمه إياها عبداً ذليلا ! . .

«ولما كان لكل امرىء من دهره ما تعود ، وكان بول بتروفتش قد تعود النصر السريع في ميادين الغرام ، فقد انتصر هذه المرة كما اشتهى ، ونال وصل هذه الأميرة لليلته !.. ولكن هذا لم يشف حرارة هواه ، ولا أبرد غليل جواه ، بل زاده وصالها شوقاً اليها ، وتفانياً في حبها ، مستعذباً في سبيل ذلك كل عذاب . والواقع ان هذه الأميرة الفاتنة كانت ذات شخصية طاغية لا يدرك كنهها ، ومهما أنالت صاحبها من نفسها ، كانت تبدو كالمسخرة لقوة غامضة غالبة توجهها كما تشاء ، وتحملها على المجانة تارة وعلى التبتل تارة أخرى !

« وأتى عليها حين من الدهر جف فيه من وجهها ماء البشر ، وشردت نظرات عينيها ، وكفت عن مداعبة العشيق الذي اصطفته وسكنت اليه ، وصارت لا تنظر اليه ، أو تصغي لحديثه إلا على استكراه ، وكثيراً ما كان ذلك النفور ينقلب في لحظات معينة رعباً وارتياعاً ، فتتقلص عضلات وجهها حتى يحكى وجوه الموتى ، فتلوذ بمخدعها وتوصد دونها بابه ، وتسمع خادمتها ــ وقد وضعت أذنها على ثقب المفتاح ــ صوت نشيجها المتصل في مرارة ويأس ، فكان ذلك يحز في نفس بول بتروفتش ويؤلمه كثيراً .

« وفي ذات مرة ، أهدى اليها خاتماً به جوهرة على شكل أبي الهول ، فلما سألته عن سر ذلك الاختيار ، أجابها بأن أبا الهول رمز الأسرار ، وبأنها هي سر الأسرار !. فابتسمت ابتسامة واهنة وتقبلت الخاتم منه !. وكان حبه لها عنيفاً جارفاً ، فلم يحتمل خمود غرامها ، وصار يلاحقها بالغيرة حتى صار أشبه بظلها ، فلما ضاقت به ذرعا غادرت البلاد فجأة إلى الخارج ، إلى حيث لا يعلم إلا الله . وهنا أصم بول بتروفتش أذنيه عن نصح الأصدقاء والأقرباء ، وضحى بمستقبله المزدهر ، فاستقال من خدمة الجيش ، وسارع إلى الخارج بحثا عن فاتنته الهاربة . ولكنه سلخ من العمر أربع سنوات يتشمم ريحها ، ويتسقط

أخبارها ، ولا يكاد يعرف موضعها حتى يخف اليه ،ولكن ليجدها قد غادرته إلى مكان آخر مجهول !

«وأخيراً قيض له أن يلقاها في «بادن» ، فاذا غرامهما يتأجج من جديد، وإذ بهــا تعترف بأنها لم تحبه يوما كما أحبته حينذاك . ولــكن هذا لم يشفع في انقطاع ما بينهما مرة أخرى بعد شهر واحد من الزمن ، فكانت قطيعة الأبد !. وعاد بول بتروفتش إلى روسيا صديع القلب محزون الخاطر ، فاجتهد أن يعود إلى سالف سيرته قبل أن يلتقي بتلك الأميرة ، ولــكنه لم يفلح في ذلك لما طرأ على وجدانه من تغير وتبلور ونضوج ، وبعد أن تسمم كيانه كله بذلك الغرام المحموم !

«صحيح أنه بعد ذلك سطا على قلب أو قلبين،وظفر بحسناء أو حسناوين ، ولــكن خفة القلب الخلي فارقته،ففارقه الاقتدار على التلذذ بمذاق تلك اللذات السهلة ، فأضحى بذلك فريسة الــكآبة والملالة ، ولــكن الزواج لم يخطر له على بال !

« ومرت عشر سنوات ، إلى أن سمع ذات ليلة وهو في ناديه نعى الأميرة (ر) وانها ماتت في باريس في حال أقرب ما تكون إلى الخبــال الصريح ، فنهض عن مائدته وراح يذرع حجرات النادى بوجه كوجوه الموتى ، فلا يقف إلا عند موائد القمار ، إلى أن حان موعد انصرافه المألوف فانصرف . وما كاد يصل إلى مسكنه حتى حمل اليه صندوق صغير مغلق ، ما كاد يفتحه حتى وجد فيه ذلك الخاتم الذى أهداه يوما إلى حبيبته ، وقد حفر فوق شكل أبي الهول رسم الصليب ، ووجد رقعة بخط الأميرة تقول فيهــا ان السر قد انجلى عن طريق الصليب !

«وقد حدث ذلك في أوائل سنة ١٨٤٨ ، وفقد نقولاى بتروفتش زوجته، ونزح إلى بطرسبرج.ولما كانت صلة بول بالأميرة قد بدأت قبيل زواج نقولاى، فالأخوان لم يتقابلا طيلة ذلك العهد ،لأن أبي كما تعلم أقام بالريف منذ تزوج. فكان التقاؤهما عندئذ مؤثراً ، وقد فقد كلاهما أعز الناس لديه ، وإن كان أبي ينظر إلى ماضيه فيجده غير مهدر،ويجد له ثمرة هي ولده .. أما عمي فلا تقبض يده من حصاد ذلك الماضي إلا على هشيم تذروه الرياح !... ولذلك سرعان ما قر رأيه على التوجه للاقامة مع أخيه في ضيعة «مارينو» . ولــكنه لم ينفذ ذلك إلا بعد سنة ونصف سنة.ومنذ ذلك اليوم وهو مقيم هنا ، لا هم له إلا القراءة

في الكتب ، ولا سيما الانجليزي منها .. فهو قد استطاب النسق الانجليزي في كل باب من أبواب الحياة .. مع تمسك بتقاليد الأرستقراطية من إباء ، وكرم ، ونجدة »

وسكت اركادى بعد ذلك برهة ، ثم استطرد فقال :

ــ ها أنت ذا يا الجيني ترى انك غبنت عمى غبنا شديداً ، وجرت عليه. فكم من مرة أنقذ فلاحا من هاوية الافلاس ، بل كم من مرة أنقذ أبي من الفضيحة !

فأجابه بازاروف باقتضاب : « اننا نعلم جميعا ما دلالة هذه الأعراض العصبية ! »

ــ ربما ، ولكنه طيب القلب ، وهو ليس لئيما ولا وغداً ، وكم من نصيحة قد أسداها إلى ، ولا سيما في باب النسائيات !

ــ طبعا .. طبعا !

ــ وهو أيضا انسان شقي ، ليس أهلا للزراية والهزء !

ــ ومن الذي يهزأ به ؟. ان كل دعواى أنه رجل علق كل شيء في حياته على حب امرأة ، فلما خسر ذلك الحب تداعى بنيان حياته ولم تبق فيه فضلة خير لشيء . ومثل ذلك الرجل لايصح أن يسمى رجلا ... وأنت تقول انه شقي ، وأنت طبعا أعرف به مني ، ولكن ذلك لايمنع أنه انسان فاشل لايصلح لشيء ، ولا يشفع له في تلك الصفة أنه يقرأ ، أو ينقذ في كل شهر فلاحا من هاوية الخراب !

ــ ولكن .. تذكر نشأته وبيئته في زمانه !

ــ نشأته وبيئته في زمانه ؟. ماهذا القول ؟. ان الرجل الحق هو الذي يستطيع أن يربي نفسه بنفسه ، كما فعلت أنا ، أو .. هو الذي يصنع بيئته وزمانه ، لا من يكون صنيعة لهما . ثم ماهذا الهراء الذي تدعونه حب امرأة ذلك الحب الحاطم ؟ ان العلاقة بين الرجل والمرأة شيء معروف كل المعرفة في علم الفزيولوجيا ، أي وظائف الأعضاء .. وهي علاقة الذكر بالأنثى . وما خلا ذلك فهو عاطفة مريضة منحلة !.. والآن هيا بنا لنشاهد خنفساء الماء !

احلام الماضى

لم يشهد بول بتروفتش إلا جانباً يسيراً من اجتماع شقيقه بناظر الزراعة الطويل القامة ، الدائم الانحناء لكل ملاحظة . والواقع أن بول ما كان يهتم بتلك الأمور اهتماماً جدياً . فهو قد أمد شقيقه نيقولاى بالمال غيرمرة لانقاذه من الافلاس ، ولكن ظروفه المالية العصيبة الحالية لا تسمح له بحضور ذلك الاجتماع حتى النهاية ، تجنباً للحرج ، فانه لا يستطيع أن يضع يده فى جيبه ويقول لشقيقه باللغة الفرنسية وفى عدم مبالاة :

— لا تكترث ، فى استطاعتي أن أمدك بما تحتاج إليه من المال !

نعم ، لم يعد بول بتروفتش الآن فى بحبوحة تسمح له بذلك ، ولهذا آثر أن يترك شقيقه مع ناظر الزراعة وحدهما بعد دقائق معدودة ، فاخترق الدهليز الذى يفصل واجهة الدار عن الأجنحة الخلفية ، حتى إذا وصل إلى باب منخفض وقف فى مكانه كمن انتابته الحيرة ، ثم مسح بأصابعه الغضة على شاربه المفتول مرتين ، وبعد ذلك طرق بمفاصل سبابته ذلك الباب ، فأجابته تينيتشكا من الداخل :

— من الطارق ؟ تفضل بالدخول !

فقال بول بتروفتش وهو يفتح الباب : « هذا أنا ! »

فقفزت تينيتشكا من المقعد التي كانت جالسة عليه حاملة طفلها ، وأعطت الطفل للمربية لحملته خارج الحجرة ، ثم أسرعت هى تسوى من هندامها ، فقال لها بول دون أن ينظر إليها :

— اغفرى لى إزعاجى إياك ! . ولكن هدفى من الحضور الى هنا أن أطلب إليك — إذا كان صحيحاً ما علمته أنك ستبعثين فى شراء أشياء لك وللبيت من المدينة هذا اليوم — أن تتكرمى باحضار شىء من الشاى الأخضر

لاستعمالى الشخصى . فهل هذا ممكن ؟

— سأفعل . فكم أوقية تريد ؟

— أعتقد أن نصف رطل كمية كافية جداً . !

ثم تحول بعينيه الى الغرفة ومحتوياتها فشملها بنظرة تناولت فيما تناولت ملامح تينيتشكا نفسها ، ثم قال :

— ما كل هذه التغيرات والمستحدثات ؟

فلما رأى على وجهها أمارات التساؤل قال لها مستدركا : « إنما عنيت هذه الستائر الجديدة ! »

— آه طبعاً . الستائر . لقد أعطانى إياها نيقولاى بتروفتش نفسه ، وهى معلقة فى مواضعها منذ مدة طويلة !

— ولكننى فيما أذكر لم أقم بزيارتك منذ مدة طويلة . وتبدو لى الحجرة مستكملة جميع معدات الراحة . أليس كذلك ؟

فأجابته تينيتشكا بصوت أشبه ما يكون بالهمس :

— نعم ، وشكراً لأفضال نيقولاى بتروفتش !

فاستطرد بول بتروفتش بأدب شديد ، ودون أن تلوح على وجهه أدنى ظلال الابتسام :

— هل ترين الحياة هنا خيراً مما كانت فى الجناح الملحق بالبيت ؟

وكان ذلك الجناح هو البناء المخصص لخدم الدار . فأجابته بجد وبساطة : « أجل !. الاقامة هنا أحسن كثيراً .. ! »

فسألها : « من الذى حل محلك فى حجرتك هناك ؟ » . فأجابت بقولها : « الغسالة ! »

وأخذ بول بتروفتش الى الصمت ، أما تينيتشكا فقالت بينها وبين نفسها : « إخاله الآن سينصرف ! »

ولكنه لم ينصرف ، بل ظل واقفاً حيث هو ، وحتم عليها أن تظل واقفة أمامه تقبض أصابعها وتطويها فى حركة عصبية ، إلى أن سألها أخيراً :

— لماذا أرسلت الطفل بعيداً ؟. إنى أحب الأطفال . فأرنيه من فضلك !

فاحمر وجه تنيتشكا ارتباكاً وسروراً ، مع أنها كانت تضطرب وتتوتر أعصابها اذا التقت ببول بتروفتش ، وقلما كان يوجه إليها الخطاب أصلا ، وصاحت تنادي المربية بصوت يهزه الابتهاج :

— دونياشا !. أحضري ميتيا بسرعة ، ولكن ألبسيه ملابسه أولا !

وأسرعت هي نفسها نحو الباب ، فقال بول بتروفتش :

— ليس هذا ضرورياً . أحضريه كما هو !

— لن ألبث طويلا !

ثم اختفت تاركة بول بتروفتش وحده في الحجرة ، فراح يتفحص ما حوله بنظرة ثاقبة . وكانت الحجرة الصغيرة المنخفضة السقف نظيفة ومريحة ، تشيع في جوها رائحة الينسون ودهان تلميع الأثاث . وحول الجدران مقاعد من طراز غريب كان والده الجنرال قد اشتراها أثناء الحملة على بولندا . وفي أحد الأركان سرير فوقه ملاءة من الحرير اللامع الموصلي ، وإلى جواره صندوق صغير للثياب ، وفي مواجهته إيقونة للقديس نيقولاي سودتها أضواء الشموع الموقدة تحتها . وعلى النافذة صفت بعناية جرار صغيرة محكمة بها بقايا المربى التي صنعتها تنيتشكا في السنة الماضية ، وقد كتبت فوق هذه الجرار بطاقات بخط تنيتشكا الواضح تحمل كلمة واحدة « توت » أو « شليك » فتلك كانت هي المربى المفضلة لدى نيقولاي بتروفتش . ومن وسط السقف يتدلى حبل طويل في نهايته قفص بداخله عصفور لا يني عن الزقزقة والرقص ، فكأن القفص بندول ساعة دائمة الدوران ، وتتناثر منه في اهتزازات منتظمة حبوب القرطم والسمسم . وفوق الجدار المواجه للأيقونة صور باهتة رديئة الصنعة تمثل نيقولاي بتروفتش في مراحل عمره المختلفة ، وهي في الغالب من إخراج بعض المصورين الشمسيين الذين يتنقلون بآلاتهم المصورة بين قرى الريف الروسي . وفي وسط هذه المجموعة النيقولاوية صورة كبيرة فاشلة تمثل تنيتشكا نفسها . ومن فوق إطار هذه الصورة علقت حذوة حصان صغيرة !

وفي الدقائق الخمس التي بقي فيها بول بتروفتش وحيداً في الحجرة كانت تصل الى سمعه من الحجرة المتصلة بها وسوسة ثياب وأصوات همس تبدو منها

اللهفة . فتناول بول بتروفتش من فوق مائدة الزينة كتاباً لا شك أن شقيقه نيقولاى كان يقرأ فيه من قبل ، وراح يقلب صفحاته فى غير اهتمام . وفجأة انفتح الباب وبرزت منه تنيتشكا تحمل ميتيا بعد أن ألبسته ثوباً أحمر له ياقة مطرزة بخيوط ذهبية ، وقد رجلت شعره وغسلت وجهه فبدا نظيفاً لامعاً . وقد انطلقت أساريره بالضحك والبشر ، وراح بدنه كله يهتز بحركات ذراعيه اللذين كان يطوحهما فى الهواء شأن الأطفال الأصحاء !

وكانت هى أيضاً قد رجلت شعر رأسها ، وسوت هندامها . مع أنها لم تكن بحاجة الى شىء من ذلك ، إذ ليس فى الدنيا أشد استرعاء للاحترام من منظر أم وسيمة شابة تحمل بين ذراعيها طفلا جميلا صحيح البدن كامل العافية !

وقال بول بتروفتش متهللا وهو يداعب بسبابته ذقن الطفل :

— يا للجمال !. يا له من صغير جميل !

فثبت الطفل عينيه فى العصفور الذى كان فوق رأس بول وابتسم مسرورا ، أما تنيتشكا فراحت تهدهده فى حنان وزهو ، فسألها بول : « ما سنه ؟ »

— ستة أشهر . وفى الحادى عشر من هذا الشهر يتم شهره السابع !

وفى هذه اللحظة راح الطفل يصدر أصواتاً غريبة ، وقد تركزت عيناه على خزانة الملابس ، وأطبق أصابعه الصغيرة على فم أمه وأنفها ، فصاحت أمه :

— يا للعربيد الوغد الصغير !

ولكنها لم تحاول تخليص أنفها وفمها من أظافر وليدها ، فقال بول بتروفتش :

— إنه عظيم الشبه بأخى !

فقالت تنيتشكا فى نفسها : « من عساه أن يشبه إن لم يشبه أخاك ؟ »

واستطرد بول ، كأنما يخاطب نفسه ، وهو يحدق فى إمعان فى ملامح الأم الشابة :

— أجل . إن الشبه واضح لا شك فيه !

وقالت تنيتشكا تخاطب الطفل بصوت كالهمس :

— هذا عمك يا ميتيا .!

وفى هذه اللحظة انبعثت من خلف بول صيحة دهشة أطلقها نيقولاى بتروفتش :

— أهذا أنت يا بول ؟

فواجهه بول بتروفتش وقد عقص حاجبيه ، ولكن السرور كان يطفح من عينيه ، ولا سيما حين رأى البهجة الشاملة التى فاضت على وجه نيقولاى . ثم قال له :

— إن طفلك هذا لطيف مليح !

ثم نظر فى ساعته واستطرد : « لقد حضرت الى هنا لأطلب إحضار كمية من الشاى الأخضر من المدينة لاستعمالى الشخصى »

ثم تصنع عدم الاكتراث ، وغادر الغرفة ، فبادر نيقولاى بتروفتش تنيتشكا سائلا :

— هل حضر الى هنا من تلقاء نفسه ؟

— أجل من تلقاء نفسه . لقد فوجئت به يطرق الباب ويدخل !

— وماذا عن أركاشا ؟ ألم يحضر أيضاً لزيارتك ؟

— كلا يا نيقولاى بتروفتش . ولهذه المناسبة ، هل لى أن أعود الى حجرتى القديمة فى الجناح الملحق بالبيت ؟

— ولماذا تريدين العودة الى هناك ؟

— لأن الاقامة هناك أوفق وأليق بى !

فحك نيقولاى بتروفتش جبهته براحة يده فى شيء من التردد ثم قال :

— لا أظن ذلك !. ولئن كان فيما سبق سبب يدعو لإقامتك هناك ، فان هذا السبب قد زال الآن تماماً ، فلا محل لهذا التفكير !

ثم هجم على الطفل الصغير فقبل خديه وهو يهتف به : « طاب يومك أيها الوغد الشرير ! »

ثم انحنى درجة أخرى فهبط بشفتيه عن وجنتى الطفل الى يد تنيتشكا التى كانت تبدو ناصعة البياض فوق ثوب الطفل الأحمر ، فغضت بصرها وقالت :

— لماذا فعلت ذلك يا نيقولاى بتروفتش ؟

فلما رفعت عينيها الى عينيه كان السرور والخجل والتواضع ينبعث منهما ، وكانت على شفتيها ابتسامتها المختلجة اليسيرة ، فكستها هذه الابتسامة وتلك النظرة سحراً رائعاً أخاذاً حقاً !



ونذكر هنا كيف التقى نيقولاى بتروفتش أول مرة بصاحبته تنيتشكا . فمنذ ثلاث سنوات اتفق له أن يبيت ليلة على غير انتظار فى مدينة نائية من مدن الأقاليم ، فلفت نظره مبلغ نظافة الحجرة التى خصصت له . فقد كان كل شىء على أتم ما يكون أناقة مع البساطة البالغة . وكانت مفارش السرير رائعة حقاً فى بياضها الثلجى . فقال فى ذات نفسه : « ليست عندى ذرة من شك فى أن ربة هذا الخان النظيف على تواضعه سيدة ألمانية . فما عهدنا فى نسائنا الروسيات هذه النظافة القصوى ! »

ولكن اتضح عند البحث أنها لم تكن ألمانية فى كثير أو قليل ، بل هى امرأة روسية فى نحو الخمسين من عمرها ، حسنة الهندام . هادئة الأعصاب ، رزينة مهذبة وسيمة ، لطيفة الوقع على النفس بحديثها اللبق ولهجتها المهذبة ، فلما تناول طعام الافطار الشهى فى الصباح التالى تحدث إليها حديثاً طويلا . فمال إليها بكل جوارحه . وكان نيقولاى فى ذلك الوقت قد انتقل الى بيته الجديد ، وأحس الحاجة الى استخدام مجموعة من الخدم الأجراء المدربين ، من طبقة غير طبقة الفلاحين الذين كانوا الى وقت قريب تحت نير الرق ، فهؤلاء أجلاف لا يصلحون لخدمة البيوت . واتفق أيضاً أن هذه السيدة كانت تعانى ضيقاً مالياً بسبب الكساد العام الذى شمل جميع المرافق . فاقترح نيقولاى بتروفتش عليها أن تصحبه فتقيم معه مديرة لبيته . ولما كانت هى أرملة ، وليس لها إلا ابنة واحدة صغيرة اسمها تنيتشكا ، فلم تجد ما يحول دون انتهاز هذه الفرصة التى تكفل لها حياة مستقرة واطمئناناً ، فقبلت . ولم ينقض بعد ذلك أسبوعان حتى كانت هذه السيدة المدعوة أرينا سافيشنا قد وصلت الى مارينو ، وفى صحبتها ابنتها الصغيرة ، حيث أقامتا فى الجناح الملحق بالبيت .

وكانت تنيتشكا فى السادسة عشرة من عمرها وقتئذ . فلم تكن أمها تجرى ذكرها على لسانها . وقلما كان أحد يراها رأى العين . لأنها كانت تلتزم الانزواء . فلم تتح لنيقولاى بتروفتش فرصة اجتلاء طلعتها الرقيقة وملامحها الدقيقة إلا فى قداس يوم الأحد !

وانقضت على ذلك سنة كاملة . وفى ذات يوم دخلت أرينا مكتب نيقولاى فانحنت أمامه كما هى العادة ، وطلبت إليه فى لهجة التوسل أن يأتى معها كى يعينها على إسعاف ابنتها ، فقد أصابت إحدى عينيها شرارة تطايرت من الموقد . وكان نيقولاى يحتفظ فى مكتبه بضمادات وعقاقير مما يستخدم للاسعاف الأولى ، شأن من يقيمون فى الأماكن النائية من الريف ، فأسرع الى إسعاف الصبية الصغيرة بنفسه ، ودل والدتها على طريقة استعمال الكمادات والغسيل . ولما هم بالانصراف صاحت الأم بابنتها :

— هيا قبلى يد السيد !

ولكن نيقولاى ارتبك ارتباكا شديداً ، وبدلا من أن يقدم إليها يده ، انحنى فقبل مفرق شعرها ، وقد تضرج وجهه بحمرة شديدة !

وسرعان ما شفيت عين الفتاة ، ولكن الإصابة وإن لم تترك أثراً فى عينها ، تركت أثراً باقياً فى نفس نيقولاى بتروفتش . فلم تغب عن عينيه بعد ذلك صورة ذلك الوجه الطاهر الرقيق الحنون ، ولم يغب عن ملمس يديه مس تلك الغدائر المتموجة الناعمة ، ولم تفتأ تحملق فى وجهه العينان البريئتان ومن تحتهما الشفتان المنفرجتان كأنهما طبق من المرجان يتوسطه عقد من اللؤلؤ النضيد الذى يتلألأ فى شعاع الشمس . ومن هنا شرع يطيل النظر الى الفتاة ساعة الصلاة فى الصباح من كل يوم أحد ، ثم يحاول مجاذبتها أطراف الحديث لحظة الانصراف . ولكن الخجل كان يستولى عليها ويقهرها كلما التقت به وجهاً لوجه . وإنه ليذكر أنه التقى بها ذات مرة مصادفة فى ممر ضيق بين الحقول ، فاذا بها تجرى وتختبىء بين سنابل الشعير الطويلة ، فلمح رأسها بين الأعواد الذهبية وناداها ، فرمقته بنظرة ارتياع ، فقال لها :

— طاب صباحك يا تنيتشكا !. لا تخشى شيئاً يا تنيتشكا ، فلن أوذيك !

فأجابته بصوت خافت : « طاب صباحك يا مولاى ! » . ولكنها لم تغادر مكمنها !

وبمرور الوقت ألفت رؤيته . حتى إذا أوشكت أن تتغلب على خجلها هذا المفرط ، ماتت والدتها فجأة بداء الكوليرا ، فنشأت عن ذلك كله مشكلة ذات خطر !. فماذا يصنع بهذه الصبية تنيتشكا التى ورثت عن أمها حب النظام والنظافة ورهافة الحس والتهذيب وطيب العنصر ؟. ثم إنها صغيرة السن وحيدة فى هذا العالم ، وقلب نيقولاى بتروفتش يفيض رقة وعطفاً !

وكذلك كان ما لابد أن يكون ، ولا لزوم لمزيد من الشرح والبيان !



ونعود فنقول :

عاد نيقولاى بتروفتش يسألها بعد أن طبع تلك القبلة على يدها :

— إذن .. حضر أخى من تلقاء نفسه ؟. أتقولين إنه طرق الباب هكذا ثم دخل ؟

— أجل . طرق الباب هكذا ثم دخل !

— عظيم ! . والآن أعطينى ميتيا !

ثم شرع نيقولاى بتروفتش يلاعب الطفل فيقذفه إلى أعلى حتى يكاد يرتطم بالسقف ، ثم يتلقفه بين يديه ليقذفه مرة أخرى نحو السقف ، وهكذا دواليك ، والطفل يقهقه بضحكته الصافية مسروراً . مع أن الأم كانت تروع ويقفز قلبها بين أضلاعها مع كل قذفة من قذفات هذه اللعبة ، وتمد ذراعيها الى جهة الطفل كمن تهم بتلقيه بينهما !

وفى هذا الوقت كان بول بتروفتش قد عاد الى المكتب الذى كانت جدرانه مغطاة بورق مزركش وورود برية حمراء ، وتزينها أسلحة أثرية . أما الأرض فكانت مغطاة ببساط فارسى . وكانت خزانة الكتب مصنوعة من خشب البلوط الأسود العتيق على طراز عصر النهضة ، كما كان المكتب آية فى فن النجارة والنقش . وهناك جلس بول بتروفتش فى مقعده الوثير وعقد راحتيه وراء رأسه وراح ينظر الى السقف وقد استغرقته الأفكار !

في ذلك اليوم نفسه ، تعرف بازاروف الى تنيشكا . فقد كان يتمشى في الحديقة مع مضيفه أركادى ، وهما يتناقشان معاً في العوامل التي جعلت بعض أنواع الشجر في الحديقة ، ولاسيما شجرالبلوط ، لا تنبت نباتاً حسناً كما كان ينبغي لها أن تنبت . وفيما كان بازاروف يبين تلك الأسباب لصاحبه ، إذا به يصيح فجأة :

— عجباً !. هذا « بعضهم » كامناً بين الشجر !

وكان « بعضهم » هذا مجموعة ثلاثية قوامها تنيشكا ودنياشا والصغير ميتيا . ووقف بازاروف في مكانه جامداً ، أما أركادى فأومأ الى تنيشكا إيماءة الصديق القديم ، ثم استأنف الشابان سيرهما . وسأل بازاروف صاحبه : « من هي ؟ »

— أي الاثنتين تعنى ؟

— أنت تعلم من هي التي أعنى .. وإنها لعمرى لجميلة الطلعة !

فأنشأ أركادى يشرح لبازاروف الصفة الحقيقية لتنيشكا ، وفي شيء غير قليل من الحرج ، ولـكن في التزام للحقيقة الواقعة ، فعقب بازاروف على ذلك قائلا :

— آه ! أرى لأبيك ذوقاً سليما !. ولست ألومه . ولـكن ياله من رجل ذى صبوات !. ولا مناص من تقديمي إليها أيها الصديق !

وقرن القول بالفعل . فاتجه راجعاً نحو ذلك الموضع من الأجمة ، فهتف به صاحبه وهو يتبعه مغلوباً على أمره في ذلك الاتجاه :

— بالله يا الجيني كن على حذر ، ولا تتهور . وتبصر ما أنت مقدم عليه !

— لا حاجة بك الى الفزع أيها الصديق ! فأنا أعرف آداب السلوك ، ولست جلفاً من أجلاف الريف ، فاطمئن بالا !

ولما اقترب من تنيشكا خلع قبعته ، ثم خاطبها وهو ينحنى أمامها بأدب قائلا :

— اسمحى لى بأن أقدم إليك نفسى . فأنا صديق من رفاق أركادي ، وشخص سليم العاقبة ليس منه أذى !

فنهضت تنيشكا من مقعدها وهي تحملق فيه صامتة ، فاستطرد قائلا :

— يالهذا الطفل من وليد جميل رائع !. ولكن بالله لا تراعى ، فانه لم يحدث من قبل ان أصابت عيني مولوداً بأذى، فلست من أهل الحسد . ولكن لماذا أرى خديه أحمرين هذه الحمرة المفرطة ؟. أهو في مرحلة التسنين ؟

— نعم . فقد برزت له أربع أسنان . واللثة حبلى بغيرها !

— إذن دعيني أراها . لا تخافي ، فاني طبيب !

ثم تناول الطفل بين يديه ، فأدهش تنيشكا ودنياشا أن ميتيا لم يبد أدنى مقاومة ، ولم تظهر عليه أمارة من أمارات الخوف . وبعد فحص يسير قال بازاروف :

— كل شيء على ما يرام ، وستنبت أسنانه الأخرى سريعاً وفي غير عناء . ومع هذا فلا تترددي في استدعائي في أي لحظة إذا شعر بأي تعب ليلا أو نهاراً . وأنت ؟. ألا تشكين من شيء ؟. من أي شيء ؟

— أنا بخير حال والحمد لله !

— وأنا أيضاً أحمد الله ، فان صحة الأم أثمن وأهم شيء في الدنيا !

ثم التفت نحو دنياشا قائلا : « وأنت ؟ » . فراحت الفتاة تتلوى وتطلق ضحكات متقطعة مكتومة ، فقال لها بازاروف :

— إنك تبدين على أحسن مايكون . والآن خذي بطلك الصغير !

ثم أعاد الطفل إلى أحضان تنيشكا ، فقالت بصوت خافت كمن تحدث نفسها :

— لله ما كان أشد هدوءه بين يديك !

— ان الأطفال يلزمون الهدوء دائماً معي !. فاني أعرف كيف أعاملهم !

وعندئذ قالت دنياشا : « كذلك هم يعرفون من يحبونهم بحق ! »

فقالت تنيشكا مؤمنة على قولها : « نعم !. ومع ذلك فان ميتيا قلما يرضى بذراعي بديلا ! »

فغامر اركادى قائلا وهو يتقدم نحو تنيشكا ماداً ذراعيه : « ترى .. هل يأتي إليّ ؟ »

ولكن الطفل أجفل عند بداية المحاولة ، فشمخ برأسه إلى الوراء وراح يصرخ ، فاضطربت تنيشكا اضطراباً شديداً وقالت :

— فى مرة أخرى

— صدقت !. لنترك هذا إلى فرصة أخرى ، يكون فيها قد ألفنى !

ثم استأنف الصديقان سيرهما ، فسأل بازاروف صديقه عن اسم تنيشكا ، وعن اسمها الصغير ، فلما عرف ذلك ردده كمن يريد أن يعيه ، ثم عقب على ذلك بقوله :

— إن ما أعجبنى فيها هو انتفاء أى علامة من علامات الخزى التي كان يمكن أن تشعر بها فتاة فى مثل موقفها . وتلك صفة كان سواى حرياً أن ينتقدها فيها ، ويعالها بقلة الحياء . أما أنا أيها الصديق فأقول قولا آخر . أقول ألا تعساً للخزى السخيف !. انها مغفورة لها خطاياها لأنها أم ، والأمومة عذر كاف لكل وسيلة تحقق غايتها المقدسة !

فقال اركادى : « انى أوافقك على هذا ، أما فيما يختص بأبى .. »

— مغفورة له أيضاً خطاياه !

— كلا أيها الصديق !. لست على رأيك فى هذا .!

— أتراك لا ترحب بشريك فى الميراث ؟

— ويحك يا الجبّى !. كيف تظن بى مثل هذا ؟. إن الذى أعنيه أن أبى ملوم كل الملام لسبب واحد ليس غير ، فقد كان فى رأيى حرياً أن يتزوجها !

— على رسلك أيها الصديق !. أما زلت تعلق أهمية كبرى على مراسيم الزواج ؟. إننى والله ما كنت أتوقع هذا منك !

وخطا الصديقان بعد ذلك خطوات لم يعكرها اتصال الحديث بينهما ، إلى أن قال بازاروف :

— لقد قمت بفحص المزرعة ، فوجدت الماشية والأغنام هزيلة. ووجدت الخيل أسوأ منها حالا !. أما الأبنية فتنبعث منها ريح الوخم !. وأما الأيدى العاملة فيها جنوح إلى الكسل . وأما ناظر الزراعة فلست أدرى أخبيث هو أم جاهل معتوه ؟!

— أراك اليوم غير راض عن شىء !

— انى لكذلك حقاً !. فالفلاح الروسى من أكسل وأحقر الفلاحين على وجه الأرض !

— عجباً لك ! انى أكاد أعتنق رأى عمى فيك !.

— وأى رأى هو ؟

— انك كافر بكل ما هو روسى !

— هذا صحيح !. فليس فى الروسى من خير الا سوء ظنه بنفسه ، وانى امرؤ لا يحسب حساباً إلا للواقع . اثنان واثنان أربعة . وما زاد على ذلك فمن الشيطان !

فأجابه اركادى وهو يشمل الأفق والحقول التي تكاد ترقص فى ضوء الصباح بنظرة اعجاب ونشوة :

— والطبيعة ياصاح فى روسيا ، ألا تعجبك أيضا ؟

— الطبيعة أيضا هراء وكلام فارغ،على الأقل بالمعنى الذى تفهمها بهأنت!

— ماذا تقصد ؟

— ان الطبيعة أيها الصديق ليست معبداً ولا هيكلا،ولكنها دار صناعة ، والانسان هو اليد العاملة فيها !

وفى هذه اللحظة ترامت إلى سمعهما أنغام قيثار يرسلها عازف متحمس مرهف الحس وإن كان غير خبير بالعزف تمام الخبرة ،وكانت القطعة التي يعزفها ذلك الموسيقى الهاوى من موسيقى شوبير ، فعطرت تلك النغمات الجو كما تعطر الأنسام حين تهب ندية على حقل مزهر من حقول الأقحوان ، فسأل بازاروف فى دهشة : « من العازف ياترى ؟ » . فأجاب اركادى : « انه أبى ! »

— عجبا ! أيعزف أبوك القيثار فى سنه هذه ؟!

— نعم ، وهو فى الرابعة والأربعين لا أكثر !

فانطلق بازاروف يقهقه ، فسأله أركادى : « لماذا تضحك ؟ »

فقال له : « عفوك !. ان تصورى والدك الوقور ، النبيل الريفى ، والد الأسرة العريق العتيق عازفا على القيثار قد غلبنى على أمرى ! »

وظل يضحك ، مع أن اركادى لم تفتر شفتاه عن شبح ابتسامة ، وهو الذى يكن لصاحبه إعجاب التابع لمرشده وإمامه !

سارت الحياة في مارينو على وتيرتها المألوفة في الأسبوعين التاليين . فأركادي يأخذ الأمور على علاتها مأخذاً سهلا ، أما بازاروف فنصرف إلى العمل . ويمكن أن نجمل القول فنقول انه قد أضحى مقبولا مألوفاً على غرابة أطواره وحدة طبعه ولسانه ، كما تقبل الظواهر الجوية حينما يألفها الناس . بل ان تنيشكا قد تجاوزت ذلك إلى رفع التكليف ، فلم تتحرج أن تبعث ذات ليلة اليه من يوقظه ويدعوه إلى فراش ميتيا الذي كان يعاني تلك الليلة من رجفة عارضة ، فأسرع إلى مهد الطفل وقضى ساعتين إلى جواره يعين تنيشكا على العناية به ، وهو على عادته من المزاح والتهكم . فلا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن بازاروف لم يكن له عدو كاره في مارينو سوى بول بتروفتش الذي كان لا يطيق الفتى ، لأنه كان يرى فيه وغداً مغروراً عديم النفع سليط اللسان كافراً بكل مثل عال ومبدأ قويم . فما ظنه بشاب يبلغ من جرأته أن يزدري بشخصية بول بتروفتش كرسانوف ؟

وكان نيقولاي بتروفتش يتوجس من الفتى شراً ، ولا يتوقع منه تأثيراً طيباً في ابنه أركادي ، ولكنه مع هذا كان يلتذ بسماع حديثه ، ويطيب له أن يشهد التجارب الكيماوية والطبيعية التي يقوم بها مستعيناً بذلك المجهر الحديث الذي أتى به معه !

أما موقف الخدم وعمال المزرعة منه ، فكان في الحق موقفاً طريفاً . فهم يحبونه على ما فيه من حدة قد تصل إلى الغلظة ، لأنهم يرون فيه انساناً أشبه بهم وبطبقتهم منه بطبقة الأسياد !

فهذه دنياشا النفور الخجول تتبسط معه وتضحك ملء شدقيها لنكاته ، وهذا بطرس خادم نيقولاي الخاص على ما فيه من ترفع وخيلاء ينسى هذا كله حين يتحدث إلى بازاروف . ولم يكن من هؤلاء من يكرهه ويستنكر سلوكه سوى بروكوفتش العجوز ، ساقي الأسرة وعميد خدمها ، الذي كان يكفهر وجهه استياء وامتعاضاً كلما اضطر بحكم المهنة إلى أن يملأ لبازاروف الكأس أو يقدم له قدح القهوة ، وكان يقول عنه : « إنه حلوف ألبسوه بذلة ! »

وفي الأيام الأولى من شهر يونيه ، وهي خير أيام السنة ، اعتدل الجو ،

وإن كانت نذر الكوليرا لاتفتأ تتقاطر من القرى البعيدة ، ولكن ذلك الوباء لم يكن ليقلق بال الأهلين المقيمين في تلك البقعة ، لأن نوبات الكوليرا كانت قد غدت لديهم شيئاً مألوفاً !

وفي كل صباح كان بازاروف ينهض مبكراً ، فيقطع على قدميه فرسخين أو ثلاثة فراسخ في هذا الاتجاه أو ذاك ، لا حباً في الرياضة ولكن ليجمع من المستنقعات طرائف الحشائش والنباتات وغرائب الحشرات. وكان يفلح أحياناً في اغراء أركادى بمصاحبته . وفي تلك الأحيان كان يتسلى في رحلة العودة باستدراج اركادى إلى مناقشة حامية كان يخرج منها منتصراً على طول الخط !

وفي ذات مرة كان الشابان يتسكعان في ممرات الحديقة عائدين ، حين لمحهما نيقولاى بتروفتش دون أن يلمحاه ، فشرع يخترق الحديقة ليلقاهما ، فلما اقترب منهما سمع اركادى يقول تلك العبارة التي استرعت انتباهه :

ـــ انك لم تحسن فهم والدى !

فأبطأ نيقولاى في سيره ، كي يتيح لنفسه فرصة الاستماع إلى جواب بازاروف:

ـــ إنه إنسان طيب !. ولكنه كذلك رجل على الرف ، انتهى دوره ، وانقضت ساعته !

وأرهف نيقولاى بتروفتش أذنيه ، غير أنه لم يستطع أن يتبين جواب ابنه ، فلم يسع « الرجل الذى على الرف » سوى أن يتسكع دقيقة أو دقيقتين بين الأشجار البعيدة ، ثم يعود إلى البيت في خطوات بطيئة ، منكس الرأس!

أما بازاروف فاستطرد يقول لأركادى :

ـــ لقد رأيته في الأيام الثلاثة الأخيرة يقرأ بوشكين. وكان ينبغي أن تبين له أنه لا خير في تلك القراءة ، فهو لم يعد غلاماً حتى يستهويه الشعر ، ومن ذا الذى يريد اليوم أن يكون عاطفياً ؟. لقد انتهى زمن العواطف ، ومن الخير أن تقدم اليه شيئاً عملياً ... كتابا من كتب بوخنر الألمانية مثلا !

ـــ اقتراح طيب !. فان أسلوبه سهل على المبتدىء في تلك المباحث !

وفي ذلك النهار جمعت خلوة بين الشقيقين ، فقال نيقولاى لبول :

ـــ أرى أيها الشقيق أنني وإياك من الرجال الذين على الرف ، وأن دورنا

فى الحياة انتهى وساعتنا قد انقضت . أليس كذلك ؟. وربما كان بازاروف على حق . ومهما يكن من أمر فانني لست آسفا إلا على شيء واحد : فقد كنت أشتهي وقد عاد اركادى إلى أحضانى أن أزيد منه اقترابا ، وأن تتوطد بيننا الصحبة ، فاذا بى أتخلف فى المؤخرة ، ويمضى هو متطوراً بحيث لم يعد فى استطاعة أحدنا أن يفهم لغة صاحبه !

فقال بول بتروفتش فى حدة واستنكار : « ولماذا ذلك البون الشاسع بينه وبيننا ؟. وكيف يحدث هذا التباعد ؟. لست أرى لذلك سببا سوى التأثير السيء الذى ينفثه فيه ذلك العدمى الذى لا خلاق له ولا مبدأ !. »

— ربما كنت على حق !. ولكن حدث اليوم شيء آخر جعلنى أزداد يقينا بأن صفحتنا قد طويت حقا وصدقا !

— وما ذاك ؟

— كنت اليوم مختليا بديوان بوشكين فى حجرتى ، حين اقتحمها اركادى ، وفى سكون وهدوء جذب الديوان من يدى برقة شديدة ، ودس فى يدى كتابا آخر باللغة الألمانية . فلما فرغ من ذلك ابتسم فى وجهى ابتسامة ملائكية ، ثم انصرف والديوان تحت ذراعه !

— ياإله الرحمة !. وماذا عسى أن يكون هذا الكتاب الذى أعطاك إياه؟

— هذا هو ...

ثم أخرج من الجيب الخلفى لسترته الطويلة نسخة من الطبعة التاسعة لكتاب بوخنر المشهور ، فقلب بول بتروفتش الكتاب بين يديه ثم زجر :

— أرى اركادى معنيا بأمر تعليمنا حقا !. هل حاولت أن تقرأ فيه ؟

— نعم !

— وكيف وجدته ؟

— إما أن أكون مغفلا أبله ، وإما ان يكون الكتاب غثا سخيفا !

— ألا يكون السبب أنك نسيت الألمانية ؟

— كلا !. فانى لم أجد صعوبة لغوية فيما قرأت !

وساد الصمت لحظة ، وكأنما أحب نيقولاى أن يغير مجرى الحديث فقال :

— لقد تسلمت خطابا من كوليازين . ويبدو أنه وصل أخيراً إلى عاصمة المقاطعة للتفتيش الادارى ، وقد أعرب بكل لطف عن رغبته فى رؤية اركادى ورؤيتك ورؤيتي لهذه المناسبة ، قياما بحق القرابة عليه !

— وهل تعتزم تلبية دعوته ؟

— كلا !. فهل تلبيها أنت ؟

— كلا !. فانه لا حاجة بنا إلى الانتقال خمسين فرسخا كى نتناول وجبة من الطعام . فصاحبنا يريد أن يتخايل بعدعويه ، وفى وسعه أن يشبع خيلاءه بغيرنا . ولكنه معذور ، فان منصب المستشار القيصرى منصب سام . ولو انى شخصيا ظللت فى الخدمة لكنت حريا أن أرقى اليوم إلى رتبة جنرال. ولكن أحسبنى مثالك أيها الشقيق « على الرف »

— أجل يا أخى ! . فانه قد آن لنا فيما يلوح أن نوصى بالنصب الرخامية التى تقام فوق قبورنا منذ الآن !

وتنهد نيقولاى بتروفتش بعد هذه العبارة ، فزجر أخوه بول قائلا :

— أما أنا فلا أعتزم أن ألقى السلاح وشيكا . وليكونن بينى وبين هذا الطبيب صاحب ابنك صدام وصراع ، ليعلم أينا أعلى يداً . ذلك يا أخى أمر لا شك عندى فيه !

وقد وقع ذلك الصدام كما تنبأ بول بتروفتش فى تلك الليلة بالذات ، فقد دخل بول بتروفتش قاعة الجلوس متجهم الوجه معقود العزم على اصطياد أول فرصة للاشتباك بعدوه ، وجلس على تلك النية ينتظر سنوح الفرصة . وطال انتظاره شيئا ما ، لأن بازاروف كان يلتزم الصمت فى معظم الأحوال بمحضر الرجلين . وهو فى هذه الليلة على الخصوص يشعر بعزوف عن الحديث ، فانصرف إلى احتساء الشاى صامتاً كل الصمت ، ولكن ذلك لم يثن بول بتروفتش عن عزمه ، فأصر على ارتجال الموقعة ارتجالا !

واتفق أن دار الحديث بعد لحظات عن الملاك فى الجيرة ، فلما جاء ذكر واحد منهم ، وكان يبدو أن بازاروف قد التقى به ذات مرة فى بطرسبورج ، قال عنه بجفاء :

— إنه أرستقراطي تافه :

فتلقف بول بتروفتش هذه الكلمة وأجاب بشفتين مرتجفتين غضباً :

— عفوك !. هل كلمة تافه وكلمة ارستقراطي بمعنى واحد في نظرك ؟

فأجاب بازاروف وهو يرتشف الشاي بتراخ : «لقد وصفته بأنه ارستقراطي تافه ! »

— وهذا ماسمعته . وأستنتج من هذا أنك ترى في كل الأرستقراطيين التفاهة . ولكنني لا أوافقك على رأيك . ومع أنني معروف بآرائي التقدمية، إلا أنني معروف باحترامي العظيم للارستقراطيين الحقيقيين . وأضرب لذلك مثلا أيها السيد العزيز ...

وكانت كلمة أيها السيد العزيز تحمل من أمارات الحدة ماجعل بازاروف يرفع بصره إلى محدثه وقد اختلج جفناه مرات متوالية ، وأخذ يصغي بانتباه لبقية حديث الارستقراطي بول بتروفتش :

— اضرب مثلا ياسيدي العزيز بالطبقة الأرستقراطية الانجليزية ، فهؤلاء الأمجاد يتمسكون بحقوقهم الموروثة ، ولا ينزلون عن قيد شعرة منها . ولكنهم مع ذلك يعرفون كيف يحترمون حقوق الآخرين . وكما يصرون على الوفاء بالواجب نحوهم ، يحرصون على الوفاء بالواجب عليهم . ولهذا تدين بريطانيا لطبقتها الأرستقراطية بحريتها ، لأن تلك الطبقة الأرستقراطية هي ركن هذه الحرية وعمادها !

— هذه قصة معادة طالما تكررت على أسماعنا من قبل ! ولكن ماذا تقصد من ورائها وعلى أي شيء تستدل بها ؟

— هاك ما أريد أن أدلل عليه . . انه بغير نصيب معين من الاحساس بالكرامة الشخصية والاحترام للنفس ـ وهذان الاحساسان فطريان في الأرستقراطية الحقة ـ لايمكن أن تقوم قائمة لبنيان المجتمع وللصالح العام . فالشخصية أيها السيد العزيز هي المعول عليها ، وكذلك ينبغي أن تكون الشخصية الإنسانية ثابتة كالصخر لايزعزعها شيء ، حتى ترسخ أسس المجتمع ولاتتقاذفها بتقلبات الأهواء . فأنت مثلا تسخر من طريقة لبسي وترى فيها ماينبو عن

ذوقك . ولكن هذه التوافه الصغيرة لها أهميتها الكبرى ، لا في ذاتها، ولكن من حيث صدورها عن شعورى بالواجب ، واحترامى لنفسى . ولذلك لا تعجب أن ترانى وأنا أعيش فى أعماق الريف مجهولا من كل إنسان ، ولا أستقبل أحداً ، لا أغير من عاداتى ، لأننى أتأنق لنفسى لا للناس واحتراماً لشخصى لا لأشخاص الناس !

— عفوك يابول بتروفتش ! أنت تقول أنك تحترم نفسك . وهذا جميل ولكنك مع ذلك ترضى لنفسك أن تقبع حيث أنت مكتوف اليدين ! فكيف بالله يكون ذلك التصرف منك أساساً متينا للمصلحة العامة ؟ أو لست ترى فى الكسل والبطالة مايتعارض ، أو لا يكاد يلتئم مع احترام النفس ؟

فاصفر وجه بول بتروفتش وقال :

— هذه مسألة أخرى !. وعلى كل حال فلست أشعر بأننى مطالب بأن أفسر وأبين الأسباب التى تدعونى أن أقبع حيث أنا مكتوف اليدين ، على حد تعبيرك الطريف . وأكتفى بأن أقول أن الأرستقراطية مبدأ قبل أن تكون فعلا . وأن الرجال الذين يعيشون فى أيامنا هذه بغير مبدأ رجال مجردون من الأخلاق .. وهذا ماقلته لعزيزنا اركادى غداة وصوله إلى هنا . وأنا أكرره الآن على مسامعك . ألست على رأيى يانيقولاى ؟

فأومأ نيقولاى بتروفتش برأسه مؤمناً ، فى حين صاح بازاروف قائلا :

— الارستقراطية ! التقدمية ! المبادىء ! ألم تلحظ يوما ما مقدار فراغ وتفاهة هذه الألفاظ ؟ ان الروسى اليوم ليس بحاجة إلى هذه الأصنام المنبوذة

— وإلى أى شىء يحتاج إذن فى رأيك ؟. لعمرى إن من يصغى إليك يحسبنا قد انفصلنا عن الانسانية ونواميسها ، فى حين أن منطق التاريخ يلزمنا . . .

— وما علاقة موضوعنا بمنطق التاريخ ؟ وما شأننا به ؟. إننا فى غنى عنه!

— وكيف ؟

— المسألة غاية فى البساطة : أتراك حين تريد أن تدس فى فمك لقمة بحاجة إلى المنطق اطلاقا لتقوم بتلك العملية ؟. فما شأننا بهذه الفروض والمعنويات ؟

فلوح بول بتروفتش بيده فى تقزز وقال .

— إنى عاجز عن فهمك ! ويخيل إلىّ أنك تهين الشعب الروسى. وكيف تجرؤ أنت أو سواك على عدم الاعتراف بالمبادىء والقيم الأساسية لمجتمعنا ؟ . ذلك مايتجاوز طاقة ذهنى . فأى أساس إذن للسلوك والحياة تختار لنا ؟

فتدخل اركادى فى المناقشة قائلا :

— إننى وبازاروف سبق أن قلنا لك إننا لانعترف بأى سلطان قائم :

فبادر بازاروف إلى تصحيح هذه العبارة قائلا :

— لا ! بل إننا لانعترف بأى أساس للسلوك إلا المنفعة . وأنفع خطة فى الوقت الحاضر هى الانكار والرفض . فلهذا نرفض السلطات الاجتماعية القائمة وننكرها !

— على إطلاقها ؟

— على إطلاقها !

— ماذا ؟. حتى الشعر والفن ؟.. و ... رباه ! لم أعد أدرى ماذا أريد أن أقول ؟!

فقال بازاروف بصوت عذب وعدم مبالاة :

— أكرر عليك القول أننا ننكر كل شىء إطلاقا . !

فحملق بول بتروفتش مبهوتا لأنه لم يكن يتوقع هذا .. أما اركادى فاحمر وجهه اغتباطا . وتنحنح نيقولاى بتروفتش ثم قال :

— عفوك !. إنك تقول إنك تنكر كل شىء إطلاقا . ومعنى ذلك أنك تعمل على هدم كل بنيان قائم فى المجتمع . ولكن يجب أيضاً أن تعمل على البناء !

— ليس هذا من شأننا . المهم أولا أن ننظف الأرض ونسويها . هذا مايحتاج اليه الشعب !

فصاح بول بتروفتش بحرارة وحمية :

— كلا !. إنى لا أستطيع أن أصدق أن رجلا من طرازك يعرف الشعب

معرفة كافية لاستنباط مطالبه وآماله . فالشعب الروسى ليس كما تظنونه ، فهو يقدس التقاليد ، وعملى النزعة ، ولا يستطيع أن يحيا بغير إيمان !

— لست أناقشك فى ذلك ، بل أسلم بصحة رأيك !. ولكن هذا لا يدل على شىء !

— ماذا تعنى ؟ أتراك ضد الشعب ؟

— ولم لا ؟ أليس العامة هم الذين يعتقدون إذا قصف الرعد أن النبى إيليا يذرع السماء بعربته النارية ؟ . وكلانا لا يقر هذا الرأى طبعاً . ومع أنى من الشعب ، فانى لست على مذهبه فى النظر إلى الأمور !

— وهل ترى الشعب يحتاج إلى أمثالك من العدميين ؟

— ليس من شأننا أن نقرر هذا ، مادام مثلك يرى لنفسه فائدة فى الحياة !

وعندئذ نهض نيقولاى بتروفتش قائما لتخفيف ثائرة المناقشة ، وقال :

— أرجو أيها السادة الابتعاد عما يمس الشخصيات !.

فابتسم بول بتروفتش ووضع يده فوق كتف شقيقه فأجبره على الجلوس وهو يقول :

— لا تنزعج . فان شعورى بالكرامة ، ذلك الشعور الذى يحلو لهذا السيد أن يداعبه مداعبة غير مستحبة ، سوف يمنعنى من نسيان نفسى !

ثم التفت إلى بازاروف قائلا :

— أتحسب أن رأيك هذا شىء جديد ؟ إن كنت تحسبه كذلك فقد أضعت وقتك . فكم من مرة نادى المنادون بعاديتك هذه منذ فجر التاريخ ، ولم تلبث الانسانية فى كل مرة أن تبينت فشل تلك الدعوة وافلاسها الصريح !

— اعلم قبل كل شىء أننا معاشر العدميين لا ندعو بأى دعوة . فليست الدعاية همنا

— وما همكم إذن ؟

— أن نذيع بين الناس الحقائق الملموسة ، من قبيل أن موظفينا المدنيين يتقبلون الرشوة ، وأننا فى حاجة ماسة إلى الطرق الممهدة ، والتجارة النافعة والقضاء النزيه !

— وبمعنى آخر أنكم تريدون أن تكونوا رقيباً ونديراً . وانى أوافقكم على كثير من انتقاداتكم !

— إنها ليست مجرد انتقادات . إننا ندعو إلى الكفر بكل سلطة قائمة !

— وهل هذا ماتدعونه بالعدمية !

— نعم هذا ماندعوه بالعدمية !

— إن العمل فى نظركم هو الهدم . ولكن أى جدوى لذلك الهدم إذا كنتم لاتعرفون غايتكم مما تهدفون ؟!

— إننا نهدم لأننا قوة ! والقوة لاتقدم حسابا لأى أحد !

— سلام على الحضارة التى كلفت الانسانية جهودها أجيالا بعد أجيال إذا سلمنا لكل قوة أن تعيث فى صروحها كالاعصار المدمر ، لانسألها حسابا ، ولا يقف فى طريقها شىء !. إنكم والله تستنفدون صبر الملائكة بهذا الهراء وتلك اللجاجة .. اعلموا إذن أننا نقدس الحضارة ، وما أفادت الانسانية من قيم ، وما أهدت اليها من ثمرات . وإياك أن تزعم أن تلك الثمرات لاقيمة لها ولا حساب ، فوالله إن أخيب عازف على البيان أجرته فى الليلة خمسة دراهم لهو أنفع وأجدى على الانسانية من حفنة من أمثالك . فان ذلك الرجل ومن على شاكلته يقفون فى معسكر الانسانية والثقافة لافى معسكر الفوضى والقوى الغاشمة العمياء ، ولكن شكراً لله أنكم حفنة قليلة أمام مجموع الأمة السليم !

— بل نحن أكثر مما تظن عدداً ، وأقوى يداً ، وأعز سنداً .!

— أتظن حقاً أنكم ستغلبون هذه الأمة على أمرها ؟

— معظم النار من مستصغر الشرر . ومن شمعة فى سنة ١٨١٢ نجم الحريق الذى أتى على موسكو بأكلها . فانتظر . وإن غداً لناظره قريب !

— يا للغرور الشيطانى الأخرق !. أيعجبك ماتسمع يا اركادى؟ إن الحثالة التي حاربتها آداب الانسانية عشرات القرون قد تجمعت اليوم وأطلت برأسها تتحدى كل ماهو نظيف ومحترم ، باسم العدمية . شاه الاسم ، وشاهت الدعوة ، وشاهت الوجوه !

— أرى يابول بتروفتش أن يقف الأمر عند هـذا الحد . وأن تترك لى

يومين أراجع فيهما ظروفنا الاجتماعية تفصيلا ، كى أستطيع تشريحها أمامك . أما الآن فانى منصرف مع اركادى لتشريح الضفادع . هيا بنا يا اركادى ! . وإلى اللقاء أيها السادة !

وانصرف الصديقان تاركين الأخوين وحدهما يتحسران على مآل الجيل الجديد ، إلى أن قطعت عليهما خلوتهما تنيشكا ، إذ أطلت من فرجة الباب وقالت :

— ألكما أرب فى مزيد من الشاى ؟

فقال نيقولاى بتروفتش وهو يخف للقائها :

— كلا !. وفى وسعك أن تأمرى برفع أدواته !

فنهض بول بتروفتش واتجه إلى مكتبه بعد أقرأها تحية المساء !



بعد نصف ساعة من ذلك الحديث ، توجه نيقولاى بتروفتش إلى شجرته الأثيرة ، وقد تضاربت فى رأسه الأفكار بسبب مابدا له واضحاً غاية الوضوح من التباعد بينه وبين ولده فى الروح والعقلية والاتجاه

وكان واثقاً أن ذلك التباعد سيزداد على مر الأيام ، فقال لنفسه : « لقد ذهبت إذن سدى تلك الأعوام التى سلختها شتاء بعد شتاء فى بطرسبورج باحثاً منقباً عن المؤلفات الحديثة . لقد ضاعت إذن سدى تلك الساعات الطوال فى الاستماع لأحاديث ناشئة الجيل الجديد من أتراب اركادى ! ان أخى يعتقد أننا أدنى إلى الصواب من هذين الشابين . وأعتقد أنا أيضاً اعتقاداً جازما انهما بعيدان عن الحق ، أشد منا بعداً عنه . ولكنى أعتقد أيضاً أن فيهما شيئا ينقصنا ، شيئا يجعل لهما علينا مزية التفوق . فما هو ؟. أهو الشباب ؟. كلا !. إنه ليس الشباب وحده . ومع ذلك فلست أتصور أنهما يجحدان الشعر ولا يتجاوبان مع الفن والطبيعة ! »

وراح يتلفت فيما حوله من الشجر والزرع والكواكب والنجوم كأنما يحاول أن يفهم كيف لايتجاوب إنسان مع مظاهر الطبيعة ، وكان المنظر فيما حوله — ومازالت فى السماء آثار باهتة من شعاع الشمس الغاربة — رائعاً حقاً . وكانت الحمائم والطيور وهى غادية إلى وكناتها تصفق بأجنحتها فتزيد المنظر

روعة فوق روعة . فلم يحبس نيقولاى بتروفتش إعجابه ، وترنم ببيتين من الشعر ، فأذكره ذلك ما كان من أمر ابنه اركادى معه وهو يطالع فى ديوان بوشكين ، وتذكر بذلك ذاك الكتاب الألمانى ، فصرفه عن التغنى بالشعر ، وأطلق العنان لأحلامه تسترجع لمحات من صوت الماضى ..

والحق أن نيقولاى بتروفتش كان طول حياته من أصحاب الأحلام ، وقد تأصلت فيه هذه النزعة بعد أن ترمل وانزوى فى ذلك الركن من الريف !

وتذكر كيف كان يعلق منذ قليل الآمال الكبار على الصحبة والتعاطف والامتزاج بين حياته وحياة ولده ، فاذا به اليوم وقد يئس من هذا كله . ثم تراءت له بعد ذلك زوجته الميتة ، فتراءت له كما عهدها فى الفترة الأخيرة آخر عهده بها سيدة مكتملة الأنوثة رزينة ، بل تراءت له كأول عهده بها فتاة صغيرة السن نحيلة العود بريئة النظرات . ولمعت أمام ناظريه الذوائب الأنيقة فوق عنق يافع ، فتذكر بذلك لقاءه الأول معها ، وهو بعد طالب

لقد كان ذلك على سلم الدار المفضى إلى مسكنه ، حينما احتك بها صدفة ، فوقف يعتذر اليها ، ولكن الله لم يفتح عليه إلا بكلمة : « عفوك ياسيدتى ! »

فانحنت وابتسمت ، ثم هربت مسرعة كأنما مسها ذعر مفاجىء . ولكن هربها لم يطل ، لأنها وقفت عند منحنى السلم والتفتت وراءها ، ثم احمر وجهها !

وفي تلك المقابلات الأولى التى سادها الخجل والحياء ، ولم يتبادلا فيها من الكلمات إلا مقاطع متناثرة لاتكتمل ، وتلك الابتسامات المختلجة على الشفاه ، والتى تنتهى كما ابتدأت بفراق مفاجىء بغير محصول ملموس ، عرف أول رشفة من ينبوع الحب ، واستمرأ الكأس فشربها حتى الثمالة ! . وانتهت به تلك الأيام المعسولة إلى الزواج ، ذلك الزواج الذى أذاقته فيه تلك المرأة ألوانا لايتصورها العقل من طعوم السعادة التي لاتتاح إلا لأفراد قليلين من بنى الانسان !

ولكن كان يلح عليه دائما هذا السؤال :

— لماذا لم تدم تلك الأيام الحلوة إلى الأبد ؟ !

ولم يبذل أي محاولة للربط بين أفكاره . فكل همه أن يشعر بأن ماريا بقربه كما كانت ، ويستنشق أو يتنسم أنفاسها الطيبة الغالية . وكذلك كانت تستولى عليه فى لحظات ذلك التذكار حالة نفسية غريبة !

وقطع عليه ذلك كله صوت تنيشكا آتياً من جوف الظلام فى البستان :

— نيقولاى بتروفتش ! أين أنت ؟

فلما سمع ذلك النداء شعر بمزيج غريب من الارتباك والخجل . ومع أنه لم يكن هناك وجه للمقارنة بين زوجته المتوفاة وتنيشكا ، إلا أنه أجفل ، وشعر بظل من الأسف لأن تنيشكا نادته فى هذه اللحظة بالذات ، فقد رده صوتها إلى الشعرات البيض ، والكهولة ، وكل مافى حاضره من مجافاة لأيام شبابه ويفاعته . وهكذا تلاشت بذلك النداء تلك الصورة السحرية ، وأجابها :

— ها أنذا ياتنيشكا . اذهبي الآن ، وسآتى بعد قليل !

وانصرفت تنيشكا مذعنة ، وتنبه إلى أن الليل قد أطبق عليه وهو منساق مع الأحلام وقد خيم السكون مع الظلمة ، ولم تسعفه مخيلته من صورها إلا بصورة وجه تنيشكا الناصع البياض وسط الليل القاتم ، فنهض عائداً إلى البيت ، ولكنه لم يجد من نفسه نزوعا كافياً إلى ذلك ، فراح يذرع الحديقة جيئة وذهوبا ، حتى أعياه ذلك ، ومع هذا مازال عازفا عن العودة إلى وكره الهادىء ، لأن ذلك الوكر يسبح فى النور ، أما هنا فالظلام الذى يستريح اليه ، والنسيم الذى يرطب صفحة وجهه ويذهب بحرارة الذكريات وينفض عنه الأحزان !

وعند منعطف فى الممشى التقى بأخيه ، فقال بول بتروفتش :

— ماذا بك يانيقولاى ؟ . إن محياك أبيض كالثلج . أأنت مريض ؟

فراح نيقولاى بتروفتش يطلعه على جانب من خواطره ، ثم اتجه إلى البيت . أما بول فذهب إلى الطرف الأقصى من البستان واستغرق فى تأمل عميق للسماء المرصعة بالنجوم !

وفى تلك الليلة قال بازاروف لأركادى :

— لقد سمعت والدك يقول إن قريباً لكم قد أرسل إليه دعوة قرر أن يرفضها . فما رأيك فى أن نلبي نحن الدعوة نيابة عن أبيك ، بما أنك كنت مدعواً معه .؟ لقد تحسن الجو ، وهى فرصة مواتية للذهاب إلى المدينة وإلقاء نظرة عليها ، كما أنها أيضاً فرصة أجمل للاختلاء والحديث الذى لايقطع حبله أبوك وعمك !

— وهل ستعود معى إلى هنا ؟

— كلا :. بل سأذهب إلى بيت أبى ، فاننى لم أره منذ زمن طويل وكذلك أمى . وهما يستحقان شيئا من العناية ، لما بذلاه فى سبيلى !

— وهل تعتزم البقاء هناك طويلا ؟

— كلا !. فالاقامة هناك مملة !

— أليس فى نيتك أن تكرر زيارتنا عند العودة ؟

— سأفعل إن استطعت . أموافق أنت على أن نذهب إلى المدينة !

— نعم ، مادامت هذه رغبتك .!.

والواقع أن اركادى كان مسروراً جداً لهذا الاقتراح . وقد رحلا فى الصباح الباكر ، فكان ذهابهما مدعاة أسى للشبيبة من أهل مارينو ، حتى إن دنياشا بكت . أما بول ونيقولاى بتروفتش فتنفسا الصعداء !



امرأة تقدمية

كانت المدينة التي قصد إليها اركادى وصاحبه تحت حكم رجل تقدمى مستبد؛ اصطدم منذ السنة الأولى لحكمه برئيس البلدية ورئيس مجلس المديرية وبجمع الأعيان وكبار الموظفين . وكان الخلاف بينه وبينهم قد بلغ ذروته فى ذلك الحين ، وتحتم على الحكومة المركزية أن تبعث إلى تلك المدينة بمستشار قيصرى محققاً ومحاولا إصلاح ذات البين . ووقع اختيار الحكومة المركزية لهذه المهمة على إليتش كوليازين ، وهو ابن كوليازين الكبير الذى كان مشرفاً ومراسلا على بول ونيقولاى بتروفتش أيام طلبهما العلم فى بطرسبورج . وهو من المنتسبين الى المدرسة الجديدة ، وإن كان عمره قد جاوز الأربعين ، كما أنه مشغوف بازدحام النياشين والأوسمة على صفحة صدره ، لأنه — مثل صاحبه الحاكم الذى جاء يحقق معه — من أهل الزهو والخيلاء !

وقد رحب كوليازين بقريبه الشاب أركادى فى بشاشة الرجل الكبير ذى الثقافة والمنصب ، بيد أنه لم يستطع كتمان الاستياء حين قيل له إن قريبيه الكبيرين بول ونيقولاى بتروفتش قد تخلفا عن الحضور معتذرين ، ولكنه لم يلبث أن كظم غيظه بعد أن صب جامه على ضابط مرؤوس له كان حاضراً ، لغير ذنب جناه مطلقاً . فلما سكنت نفسه قال لأركادى :

— الآن أيها الصديق أنصح لك بأن تترك بطاقتك فى بيت الحاكم ، لا لأننى أقيم وزناً لمناصب الناس الرسمية ، بل لأن الحاكم شخصية طيبة حقاً ، وأنا واثق بأنه سيلذ لك أن تشهد المحافل الاجتماعية فى المدينة ، لأنك لست فيما أعتقد على شاكلة أبيك وعمك من أهل العزلة والانطواء . ثم إن الحاكم سيقيم حفلا راقصاً كبيراً بعد غد ، فترك البطاقة له مفيد !

— وهل ستكون حاضراً ؟

— إنه سيدعوني بطبيعة الحال . وسيكون من واجبي أن أحضر . وهل تحسن الرقص ؟

— إني أرقص ، ولكن في غير إحسان !

— لا بأس !. ففي هذه المدينة عناصر اجتماعية لا بأس بها . ومن المفيد دائماً لشاب في مثل سنك ألا يجهل الرقص . وأكرر لك لهذه المناسبة أيضا أنني لا أعتقد ذلك تقديسا مني للعرف الاجتماعي ، فهو عندي ليس أكثر من تلك المناصب الرسمية ، بل إني أفضل المزايا والنشاط العقلي على عمليات القفز الاجتماعية . ولكني مع ذلك لست من أنصار النزعة البايرونية التي انتهى زمنها

— أؤكد لك أنني لا أنتمي الى هذه النزعة !

— هذا جميل جداً !. سأقوم إذن بتقديمك الى نفر من خيرة السيدات . وسأشملك شخصيا برعايتي ، وهذا حري أن يضمن لك تمضية وقت طيب !

وفي هذه اللحظة دخل الحاجب معلنا وصول موظف كبير من موظفي المقاطعة هو مدير الخزانة ، فانتهز أركادى هذه الفرصة وانصرف الى الفندق حيث كان قد ترك صاحبه بازاروف ، وقد بذل جهداً كبيراً حقا حتى حمله على الانضمام إليه في ترك البطاقة إلى أن قبل على مضض !

واستقبلهما حاكم الاقليم استقبالا مهذبا ، ولكنه لم يدعهما إلى الجلوس ، ولم يجعل نفسه لهما قدوة فنية ، فاستمرت المقابلة (على الواقف) ، وذلك غير عجيب من رجل رتب حياته على النهوض مبكراً ، وما ان ينهض ويحلق لحيته ويرجل شعره حتى يندس في بذلة عسكرية رسمية محبوكة لها ياقة مرتفعة متصلبة ، ثم يندفع كالمحموم في إصدار الأوامر المتلاحقة ، حتى انه لا يتسع له الوقت مطلقا لإتمام وجبة طعام واحدة في اليوم بغير أمر يصدره بين الأطباق في شأن من شؤون الاقليم !

وقد تفضل الحاكم بدعوة أركادى وبازاروف الى الحفلة الراقصة . ثم كرر الدعوة بعد دقيقتين كأنه لم يوجهها إليهما من قبل ، فأدركا الإشارة وانصرفا !

وفي طريقهما الى الفندق هبط عليهما من عربة مسرعة شاب ارتمى

على عنق بازاروف فقبله مبتهجا ، أما بازاروف فقال له دون أن يقلل من سرعة سيره :

ـــ أهذا أنت يا هرسيتنكوف ؟. ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

فأجابه الآخر بعد أن أشار إلى سائق العربة أن يتبعهم بسرعة المشى :

ـــ إنها مصادفة لا غير ! . فقد دعانى أبى لزيارته لعمل بيننا . وأظنكما الآن آتيين من قصر الحاكم ، وإن كنت أرجو ألا يصدق ظنى !

ـــ خاب رجاؤك وصدق ظنك !

ـــ إذن لا حيلة لى فى أداء مثل ذلك الواجب ! . ولكن هلا قدمتنى يا بازاروف الى صديقك ؟

وقام بازاروف بتعريف كل منهما للآخر فى اقتضاب ، فلما سمع سيتنكوف اسم أركادى قال بحماسة :

ـــ لقد سمعت عنك الكثير يا مسيو كيرسانوف فأنا أيضا صديق قديم ، بل تلميذ قديم لاجينى فاسيليتش بازاروف ، وبتأثيره ولدت الولادة الفكرية الجديدة !

فألقى أركادى نظرة على تلميذ بازاروف القديم ، فوجد له ملامح لطيفة صغيرة عصبية بلهاء ، وعينين ضيقتين غائرتين تنمان عن القلق ، وشفتين منفرجتين مفترتين عن ابتسامة مستمرة متخشبة . واستطرد سيتينكوف قائلا :

ـــ أتدرى ؟ حينما قال لى بازاروف إننا يجب أن نطرح عنا كل سلطة ، شعرت بأن فجراً جديداً قد أضاء حياتى ، وانى نضجت فجأة ، وقلت فى نفسى : ها قد وجدت الرجل الذى أنشده أخيراً . ولهذه المناسبة يا بازاروف يجب أن تأتى لترى سيدة من معارفى هى ولا شك الشخص المهيأ لحسن فهمك ، وسترى فى قدومك لزيارتها حدث الساعة الذى ينشر بأحرف حمراء . ولعلك قد سمعت بها من قبل !

فقال بازاروف باقتضاب وجفاء : « كلا ! . من هى ؟ »

ـــ مدام كوكشين !. وهى ليست شخصية بارزة وامرأة مستنيرة فقط ، وإنما هى أيضا مثال المرأة المتحررة بأحسن ما فى هذه الكلمة من معنى .

فما رأيك أن نذهب ثلاثتنا لزيارتها ؟ إنها تسكن على مدى خطوتين من هنا ، وستقدم لنا طعام الغداء . وما أظن أنكما تناولتماه بعد !

— لم نتناوله بعد !

— إذن سنصيب من الزيارة عصفورين بحجر واحد . وهى مستقلة بمواردها وحياتها ، ولكنها مع ذلك سيدة متزوجة !

— أهى مليحة ؟

— كلا !.. إنها ليست مليحة بالمعنى الحرفى للكلمة !

— إذن لماذا تريد منا أن نشاهدها ؟

— أنت دائماً هكذا ، لاتفوتك النكتة والسخرية . ولكن لا تنس أنها ستقدم لنا زجاجة كاملة من أفخر أنواع الشمبانيا !

— هذا كلام عملى !

— أليس كذلك ؟ . هل نذهب إذن ؟

فنظر بازاروف الى اركادى ، وقال :

— إن من همنا التعرف الى أحوال أهل المنطقة ، وهذه الزيارة تدخل فى هذه الخطة

وقال ستينكوف : « هيا .. واعتمدا علىّ فى مسألة الشمبانيا ، وسأجتهد أن تخص كل واحد منا زجاجة ! »



كانت الميلا التى تقطنها آدفوتيا نيكيتيشنا كوكشين مبنية على الطراز المسكوفى العادى فى شارع من الشوارع المستحدثة بتلك المدينة الاقليمية

وجذب سيتنيكوف الجرس ، فاستقبلتهم أنثى مهوشة الشعر ، سوقية الخلقة ، هى وصيفة ربة الدار . ولما سأل سيتنيكوف الوصيفة حين صاروا فى البهو بصوت مرتفع : « هل ادفوتيا نيكيتيشيا موجودة ؟ » ، أجابه صوت أجش من حجرة مجاورة : « أهذا أنت يا فيكتور سيتنيكوف ؟.. ادخل ! »

وعندئذ اختفت الوصيفة إذ انتهى دورها ، وتبادل سيتنيكوف النظرات مع اركادى وبازاروف ، ثم خلع معطفه ليكشف عن سترة كأنها زكية ، ثم أشار الى رفيقيه قائلا : « تفضلا بالدخول ! »

ودخل الشابان كما أشار عليهما ، فإذا بهما فى حجرة أدنى شبهاً بالورشة منها بقاعة الاستقبال . فعلى المناضد الصغيرة عشرات من الصحف والخطابات الروسية ، وكان معظمها غير مقطوع الصفحات . أما الأرض فكانت مغطاة بما انتثر عليها من أعقاب السجائر . وفوق أريكة مكسوة بالجلد اضطجعت ربة الدار ، وهى سيدة نصف أدنى الى الشباب ، كتانية الشعر ، ترتدى ثوباً حريرياً قذراً من ثياب المنزل ، وحول معصميها المعروقين سواران عريضان . فلما دخل الشبان الثلاثة اعتدلت فى مجلسها قليلا ، وغطت كتفيها بشال من القطيفة العتيقة وشدت على يد سيتنيكوف قائلة : « طاب يومك يافيكتور ! »

فقال سيتنيكوف مقدماً صاحبيه بالطريقة المقتضبة التي تعلمها من بازاروف : « بازاروف . كيرسانوف ! » . فسلمت عليهما . ثم أضافت وهى تثبت عينيها الواسعتين فى وجه بازاروف :

— لقد قابلتك من قبل

فتجهم وجه بازاروف ، لأن شكل هذه المرأة المتحررة وإن لم يكن فيه ما ينفر ، كان لا يبعث على الارتياح ، فى نظراتها ما يكاد يدفع الانسان أن يسألها : « هل أنت جوعانة ، أو سأمانة ، أو خائفة ؟ ماذا تريدين ؟ ! »

وكانت كل حركة من حركاتها وكل كلمة من كلماتها تنم عن افتقارها الى ضبط النفس ، وعن تكلف شديد . مع أنها تزعم دائماً أنها امرأة بسيطة طيبة القلب لا تعرف الاصطناع !

وقدمت لضيوفها السجائر ، فتناول سيتنيكوف سيجاراً ضخماً واستلق فى مقعد ضخم ، وعقد ساقيه ثم قال :

— شكراً لك !. ولكن قدمى لنا أيضاً من فضلك شيئاً نتغدى به ، لأننا نشعر بجوع شديد . وهل لك أيضاً أن تأمرى لنا بزجاجة من الشمبانيا ؟ !

ودار الحديث بعد ذلك عن مناعم الحياة ، وهل ينبغى أن يحبها الانسان

أو ينفر منها ، فقال بازاروف : « أعتقد من وجهة النظر الكيميائية البحت أن قطعة اللحم أفضل من لقمة الخبز ! »

فقالت ربة البيت : « أنت إذن تدرس الكيمياء ؟ ! إن الكيمياء هى غرامى المفضل . وقد اكتشفت مرهما عجيبا ! »

— أنت اخترعت مرهما ؟

— نعم !. أتدرى ما فائدته ؟. إنها فائدة عجيبة . فهذا الدهان يستخدم فى صنع دُمى وأنابيب غير قابلة للكسر . ولكنى مع ذلك لا أعد نفسى قد أتممت مرحلة الدراسة . فلايزال أمامى أن أقرأ مؤلفات ليبج . ولكن ماهى دراسة صديقك ؟. ولهذه المناسبة ما اسمه ؟

وقد نطقت هذه الأسئلة على طريقة الأطفال ، ولكن لا فى بساطتهم ، بل بتكلف . فذكر اركادى اسمه ثم أردف قائلا :

— أما اتجاهى الخاص فى الوقت الحاضر ، فهو ألا أصنع شيئاً على الاطلاق!

— ما أجمل هذا ! . إذن أنت لا تصنع شيئاً ، حتى ولا التدخين ؟ . أنا غاضبة عليك جداً يا فيكتور ! . . لقد سمعت أخيراً أنك عدت الى الدفاع عن أدب جورج صاند ، هذه المرأة العتيقة ، فكيف يمكن مقارنتها حتى برجل من طراز امرسون ؟. إنى لا أعتقد أنها سمعت فى حياتها مجرد السماع ولو بعلم الأجنة ، مع أن الانسان فى هذا العصر لايستطيع أن ينتج شيئاً نافعاً أو يفهم شيئاً فهماً صحيحاً بغير معلومات مستفيضة فى هذا العلم ، وأرجو منك يابازاروف أن تأتى وتجلس إلى جوارى هنا على الأريكة فإن نظراتك تخيفنى دون أن تعلم !

— ولماذا أخيفك ، إذا جاز لى هذا السؤال ؟

— لأنك رجل خطر ، وناقد حاذق ، وشعورى بذلك يجعلنى أرتبك وأخلط . حتى ليبدو كلامى شبيهاً بثرثرة امرأة من صاحبات الأملاك . آه ! . أتدرى ؟. إنى فعلا من صاحبات الأملاك . ومع أنى استخدم ناظراً للزراعة من أهالى المنطقة ، أحتفظ فى يدى دائماً بزمام الأمور الادارية . ولكن ما أشد ضيقى بهذه المدينة !. مع أنى قد جعلت فيها إقامتى الدائمة . ولم أفعل ذلك إلا لأنى لم أجد ما هو أفضل !

فقال بازاروف بغير اكتراث : « حياة المدينة هى حياة المدينة دائما ! »

— لا تقل هذا .. إن الأشياء التي تهمهم هنا فى الريف من التفاهة بمكان !.. وفيما مضى ، حينما كنت أمضى فصل الشتاء من كل سنة فى موسكو ، كان الحال غير الحال . أما الآن فعلى المسيو كوكشين زوجى أن يقيم هناك بمفرده . فحتى موسكو قد تبدلت حالا بعد حال ، والواقع أننى أفكر جديا فى رحلة الى الخارج ، وقد أنفقت طول هذه السنة فى الاستعداد لهذه الرحلة !

— ستذهبين طبعا الى باريس ؟

— نعم . وإلى هايدلبرج !

— ولماذا الى هايدلبرج ؟

— لأنها مقام بنزن العظيم ، مخترع موقد بنزن ، ونور المغنسيوم . وهل تعرف بيير سابوزنيكوف الذى يتردد دائما على منزل ليدياخوستاتوف ؟

— لا أعرفه ولا أعرفها !

— عظيم ! إن سابوزنيكوف هذا هو الذى سيصحبنى فى رحلتي الى الخارج . فأنا حرة بحمد الله ، أسافر مع من أشاء . ولماذا لا تكون لى كل الحرية وليس لى أولاد بحمد الله ؟ ولست أدرى لماذا قلت بحمد الله !

ثم أخذت تلف سيجارة بين أناملها المصفرة ، ثم ألصقتها بطرف لسانها ووضعتها فى فمها وأشعلت عود الثقاب . وعندئذ دخل الخادم يحمل خوانا ، فصاحت :

— هاهو الغداء قد حضر !. افتح الزجاجة يا فكتور ، فتلك مهمتك !

وخف ستينيكوف الى مهمته . ولما احتسى بازاروف الكأس الثالثة ، قال لها فجأة : « اسمعى . أليس لديكم فى هذه المدينة نساء مليحات ؟ ! »

فقالت له : « طبعا يوجد هنا كثيرات من الجميلات ، ولكنهن كلهن تافهات .. إن لى مثلا صديقة هى مدام اودنيتسوف ، لا بأس بشكلها مطلقا ، ولا يعيبها شيء اللهم إلا أن سمعتها ليست فوق الشك ، وهذه مسألة لا قيمة لها فى ذاتها . ولكنها وا أسفاه مفتقرة كل الافتقار الى التحرر وسعة الأفق وكل ما يتعلق بهما . فالحقيقة أن نظام تنشئة النساء عندنا يحتاج الى تغيير

أساسى ، وقد فكرت شخصيا فى هذا الموضوع تفكيراً عميقا ، وانتهيت بعد تمحيص إلى أن المرأة عندنا سيئة التربية ! »

وعندئذ قال ستينيكوف : « صدقت ! . فكل ما تصلح له المرأة الروسية أن تكون موضع ازدراء . فما من واحدة تحسن الحديث الجدى ، على نمط حديثنا هذا . وما من واحدة منهن تستحق اهتمام رجل جاد »

فقال بازاروف : « ما أظن المرأة بحاجة إلى فهم شيء من قبيل حديثنا هذا ! »

فصاحت ربة البيت متعجبة : « أنت اذن على مذهب برودو ؟! »

فقاطعها بازاروف قائلا بحدة : « لست على مذهب أحد على الاطلاق ! » .

وسرعان ما تلقف ستينيكوف هذه الاشارة فصاح هاتفاً :

— فلتسقط السلطة !. فلتسقط المراجع !. فليسقط الجميع !

فساد الصمت لحظة إلى أن قطعه بازاروف قائلا :

— لقد ذكرت اسم مدام اودينتسوف على ما أظن . ووصفتها بالملاحة . فمن هى ؟

فقال ستينيكوف وقد لمعت عيناه :

— امرأة رائعة الفتنة ، ذكية ، غنية ، وأرملة . ولكنها للأسف ليست متفتحة الآفاق كما يجب . ولو أنها وثقت معرفتها بعزيزتنا افدوتيا لأفادت من صحبتها كثيراً !

وانتقل الحديث بعد ذلك تحت تأثير الخمر الى مرحلة صار فيها أشتاتا متفرقة من العبارات والمقاطع ، إلى أن تم استهلاك أربع زجاجات ، وتوالت الأطباق تباعا ، حتى إذا نهضت ربة البيت إلى البيان وأخذت تعزف وتغنى ، لم يستطع أركادى ضبط أعصابه ، فصرخ : « أيها السادة . نحن الآن فى بيمارستان ! »

أما بازاروف فراح يتثاءب ، ثم نهض فصحب أركادى وستينيكوف منصرفين !

وأقيمت الحفلة الراقصة في بيت حاكم الأقليم ، وكان كوليازين ضيف الشرف فيها ، وقد أعرب رئيس مجلس المديرية الذي كان على رأس الناهضين للحاكم ، أنه إنما تنازل بالحضور إكراماً لخاطر كوليازين ليس إلا . أما كوليازين نفسه فكان في أبهة مجده ، يبتسم للرجال ، فيلقى إلى نفر منهم بابتسامة عابرة ، ويلقى لنفر آخر بابتسامة فيها شيء من الاكتراث . وأما النساء فينحني لهن على الطريقة الفرنسية ويضحك ضحكات عريضة مدوية للنكات التي يلقيها هو شخصياً . وقد تنازل فضرب اركادي على ظهره وناداه بابن الأخ الشاب !. أما بازاروف الذي حشر قسراً في ردنجوت أسود له ذيل طويل،فقد ألقى عليه نظرة تنم عن التعالي ، فالتهبت وجنتا بازاروف .وأخيراً منح سيتنيكوف أصبعاً من أصابع يده وابتسم له وهو يشيح بوجهه ليشرق بابتسامته على شخص آخر . وأضفى على مدام كوكشين التي حضرت بقفاز قذر وعصفور من عصافير الجنة مثبت في شعرها ، أضفى عليها كلمة « تشرفنا » من طرف اللسان !

وكان الجمع كبيراً ، ولوحظ أن الموظفين المدنيين تجمعوا حول الجدران ، وان العنصر العسكري كان علاً وسط القاعة ، راقصين بحماسة عجيبة ، ولاسيما ضابط وصل حديثاً بعد أن أمضى في باريس ستة أسابيع حذق فيها ألفاظاً من الرطانة العامية الباريسية يلقيها بأناقة لفتت الأنظار وجعلته محور اهتمام الجنس اللطيف !

ولما كان اركادي لايتقن الرقص ، في حين ان بازاروف لم يكن يعرفه على الاطلاق ، فقد انتحيا ركناً انضم اليهما فيه سيتينيكوف الذي راح ينظر إلى الناس بازدراء ، إلى أن تغيرت سحنته فجأة والتفت إلى أركادي هاتفاً :

— هذه هي مدام اودينتسوف داخلة !

فلما رفع اركادي نظره رأى في فرجة الباب سيدة طويلة القامة في ثوب أسود .والحقيقة انه بوغت بالوقار الذي يشع من قامتها المنتصبة . وكانت الزهور البيضاء الصغيرة تنساب من شعرها اللامع إلى ما فوق كتفيها . بينما الابتسامة

الحالمة الذكية تطل من عينيها المتلالئتين تحت جبهتها العريضة ، وكان منظرها العام ينم عن قوة لطيفة كامنة فقال اركادى لستيتيكوف : « هل تعرفها ؟ »

— نعم أعرفها معرفة وثيقة !. فهل تريد أن أقدمك اليها ؟

— إذا سمحت !. ولكن عند ما تنتهى هذه الرقصة !

وكان انتباه بازاروف قد استرعاه أيضاً ذلك الجمال فصاح :

— يا لها من طلعة !. ما من امرأة تضارعها فى القاعة كلها !

ولما انتهت الرقصة ، اقتاد سيتنيكوف اركادى إلى مدام أودنيتسوف وقدمه لها ، وقد ألقت على الأول نظرة تنم عن الدهشة إلى حد ما : كأنها لم تره من قبل ، والواقع انه كان يحييها وهو يتلعثم . ولكنها ماسمعت اسم أسرة اركادى حتى أشرق وجهها وسألته : « أأنت نجل نيقولاى بتروفتش ؟ » . ولما أجاب بأنه ابنه ، عقبت قائلة :

— إذن فاعلم انه كان لى شرف الالتقاء بوالدك مرتين ، وسمعت عنه أيضاً الشيء الكثير ، ويسرنى جداً أن أعرفك !

وحينئذ أقبل ضابط من ضباط الياوران وطلب منها الرقصة التاليةفقبلت، فصاح اركادى باهتمام شديد : « أنت إذن ترقصين ؟ »

— نعم أرقص !. وما الذى جعلك تظن أنى لا أرقص ؟. ألأنى أبدو عجوزاً ؟

— كلا ! عفوك !. ولكن.. هل لى إذن أن أطلب شرف رقصة المازوركا؟

فابتسمت ابتسامة سمحة وأجابته إلى ما طلب.وكانت نظرتها حافلة بالنضوج والأنفة ، أشبه بنظر شقيقة متزوجة إلى أخيها الصغير ، الأصغر منها كثيراً ، مع انها لم تكن تكبر اركادى كثيراً ، لأنها بلغت منذ أيام التاسعة والعشرين من عمرها . وكان شعور اركادى بحضرتها هو شعور التلميذ المراهق ، فكان هذا يزيد فى خجله وارتباكه . ولما اقترب كوليازين فى أبهته ، ابتعد اركادى قليلا ولكن نظره ظل معلقاً بها إلى أن انتهت الرقصة التالية،وهو كالمشدوه، وأحس بجسده يختلج حين سمع ضحكتها الناعمة الخافتة مرتين . وكان شعوره

الراسخ أنه لم ير في حياته امرأة أكمل منها شخصية أو تضاهيها سحراً وفتنة !.
بل بلغ من انبهاره بها أن خيل اليه ان الحرير الذى صنع منه ثوبها نسيج وحده، وانه ينساب ويتحرك مع خطواتها في حركات موسيقية متناسقة !

وحينما ارتفعت بعد ذلك أنغام المازوركا ، رقص معها وهو كالمفتون ، حتى إذا انتهت الرقصة جلس إلى جوارها واستعد لمجاذبتها أطراف الحديث . ولكن لسانه انعقد ، ولم يجد عبثه بشعره وأذنيه وذقنه في حل تلك العقدة . على أن ذلك الاضطراب الشديد لم يدم طويلا ، إذ أن هدوءها لم يلبث ان سرى اليه ، فاذا به يتحدث اليها ربع ساعة عن والده وعمه ، وعن الحياة في بطرسبورج وفي الريف . وكانت هي تصغي اليه في اهتمام رقيق ، وهي تنشر مروحتها وتطويها بحركة رشيقة ، ولم يكن يقطع عليه حديثه إلا تقدم الرجال اليها طالبين شرف المراقصة . ولما بدأت الرقصة أدتها ثم عادت اليه دون أن يظهر على تنفسها شيء من التغير بالمجهود الذى بذلته !

ومن عجب انه لم يشعر بملازمتها للصمت ، لأنه لحسن اصغائها الذى ينم عن فهم ، ولأن الكلمات القليلة التي خرجت من فمها كانت ذات قيمة لدلالتها على عمق التفكير ورهافة الحس . وأخيراً سألته :

— من هو الرجل الذى كان واقفاً معك قبل أن يحضرك إلىّ ؟

— إذن قد لفت صاحبي نظرك ؟ أليس ذا وجه رائع ؟. انه يدعى بازاروف !

وما فتحت أمامه باب هذا الموضوع ، حتى تدفق كالسيل يتحدث بحماسة بالغة مطنبا مزايا صاحبه ، حتى حمل مدام أودينتسوف على الالتفات كي تلقى على بازاروف نظرة رقيقة . وسرعان ما آن له أن يفترق عنها على مضض ، بعد أن طلبت منه أن يأتي لزيارتها ، وأن يصحب معه صديقه الذى أثار اهتمامها بالحديث عنه ، ثم تأبطت ذراع ضيف الشرف كوليازين ليفتتحا مائدة العشاء !

وقال اركادى لنفسه وهو يشعر بالضآلة أمام شخصيتها الطاغية وفتنتها :

— لا بد أنها نسيت حتى وجودى بعد أن افترقنا !

ولحق بصديقه بازاروف في الركن المنزوى . فسأله بازاروف :

— هل أمضيت وقتا طيبا وتمتعت ؟ وما رأيك فيها ؟

— انها لطيفة جداً ، ولكنها باردة ومتمسكة بأهداب الرسميات !

— كالبركة الآسنة !. كلنا نعرف هذا الطراز . ولكن كونها باردة قد لاينفرك منها ، فربما كنت ممن يحبون المثلجات !

— ربما !. ولكنى لست خبيراً بهذه الأمور . ومهما يكن من شيء ، فانها قد أعربت عن رغبتها فى التعرف بك كما تعرفت بى ، وقد دعتنى لزيارتها على أن أصحبك معى !

— لا محالة عندى فى انك خدعتها بما وصفتنى به، ولكنك أحسنت صنعا، فأيا كان طرازها ، فلها كتفان يندر نظيرهما ، وذلك حسبها من قيمة !

فتراجع اركادى مأخوذاً بهذا التهكم ، وهاجمه قائلا :

— لماذا تحرم المرأة من الاعتراف بقدرتها على حرية التفكير ؟

— لسبب بسيط أيها السيد العزيز، هو أنى لم أصادف فى ضوء اختباراتى للحياة امرأة تفكر تفكيراً حراً ، اللهم إلا إذا كانت فلتة !

وانقطعت أسباب الحديث بعد ذلك، لانتهاء العشاء وخروجهما من القاعة، فتبعتهما مدام كوكشين بسحنة غاضبة ونظرة تقدح بالشرر . وكان مبعث غضبها أن الشبان الثلاثة لم يخطر ببالهم طلب مراقصتها، أو الاهتمام بها وبالحديث اليها، ومع هذا فقد بقيت هذه الحرة الكاشرة فى الحفلة حتى انصرف معظم المدعوين، وكانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحا حين رقصت البولكا مازوركا على الطريقة الباريسية مع سيتنيكوف فكانت رقصتهما هى نغمة الختام فى حفلة حاكم الأقليم !

سحر الجمال

توجه بازاروف في اليوم التالي مع اركادي إلى الفندق الذي تنزل فيه مدام أودنتسوف ، وفيما هما يصعدان السلم ، أخذ يتشمم الهواء ، ثم قال له :

— انني أشم هنا رائحة عفن المال !

ولم يجب اركادي ، بل طرق باب الجناح الذي وصلا اليه ، ففتحه خادم عليه كسوة رسمية ، وأدخلهما إلى قاعة للجلوس مزدانة بأزهار جميلة ذات عطر لطيف . ولم تلبث السيدة نفسها أن دخلت عليهما ، مرتدية ثوبا من أثواب الصباح البسيطة ، وقد بدت في ضوء شمس الربيع أصغر سنا وأنضر شبابا مما كانت أمس في ضوء الشموع !

وقام اركادي بتقديم بازاروف ، وأدهشه أن يلاحظ على صاحبه الارتباك ، في حين كانت السيدة على مايعهده فيها من هدوء . وشعر بازاروف بارتباكه ، فكان ذلك مدعاة إلى زيادته ، واحتاج إلى كثير من الايحاء كي يتماسك ، غير أن ذلك لم يفده كثيراً ، فوجد نفسه ينطرح فوق مقعد كبير ويشرع في الكلام إلى هذه السيدة التي تشبه أبا الهول في عصبية تنم عن انفلات الزمام ، حتى كان في هذه اللحظة أشبه الناس بستنيكوف ، في حين كانت هي تصغى إلى ذلك الحديث هادئة الأسارير ، تنم عيناها اللامعتان عن عظيم اهتمامها بما تسمع !

وكان والد « أنا سرجيفنا أوديتنسوف » رجلا معروفا بولعه بالمقامرة والنساء ، اضطرته الظروف بعد خمسة عشر عاما من المغامرات المثيرة في بطرسبورج وموسكو حتى نفدت ثروته إلى أن يعتزل في الريف ، وهناك مات بعد قليل غير مخلف لابنته أنا التي كانت في العشرين من عمرها وابنته كاترينا التي كانت في الثانية عشرة سوى إيراد صغير . أما أمهما فكانت قد ماتت قبل

ذلك أثناء اقامة الأسرة بمدينة بطرسبورج . وبذلك صار مركز أنا بعد وفاة والدها دقيقاً جداً ، إذ أن التعليم الراقى الذى تلقته فى العاصمة لم يكن قد أعدها لادارة البيت والمزرعة ، ولمعاناة الحياة فى الريف . يضاف إلى هذا أنه لم يكن لها فى الجيرة معارف أو أقارب أو أى إنسان يمكن أن تركن اليه لالتماس النصح، لأن والدها كان قد قطع كل صلة بجيرانه ، وتحاشى الاختلاط بهم ، ولذلك كان على أنا أن تتحمل الموقف ، وأن تمضى رافعة الرأس ، فبعثت تستقدم خالتها الأميرة افدوتيا ستيبانوفنا ، وهى عجوز ذات صلف وخبث . احتكرت لنفسها منذ وصولها خير حجرات البيت ، وكانت تزمجر ساخطة من الصباح إلى المساء لسبب ولغير سبب ، وترفض أن تتمشى فى حديقة البيت ، إلا إذا مشى وراءها عبدها الوحيد العبوس الوجه فى كسوة خضراء كالحة لها ياقة زرقاء وفوق رأسه قبعة مثلثة !

وقد تحملت أنا ذلك كله من خالتها ، وأشرفت بجد على تعليم أختها ، وقد وطنت النفس على الحياة فى تلك العزلة سائر حياتها ، ولكن القدر كان يخبىء لها مصيراً آخر : فان رجلا من الأعيان ، فيه بلاهة ، وفى نحو السادسة والأربعين ، تدله بحبها ، فقبلت الزواج منه . وعاشا معاً ست سنوات ، مات بعدها تاركا لها كل ممتلكاته . وقد أمضت العام التالى فى الريف ، ثم سافرت بعد ذلك مع أختها إلى ألمانيا ، ولكن الرحلة أسأمتها فعادت إلى الاقامة فى ضيعة نيقولسكاو التى تركها لها زوجها على مسافة أربعين فرسخا من هذه المدينة الاقليمية . فقد كان تحت تصرفها بتلك الضيعة قصر جميل بديع الأثاث ، وحديقة غناء ، بها أشجار البرتقال النادر ، ولهذا لم تكن تحضر إلى المدينة إلا فى زيارات خاطفة لقضاء حاجاتها وانجاز أعمالها . وكان أهل المدينة تدهشهم هذه العزلة ، فانصرفوا إلى التهامس حولها بغير مبرر ، وراحوا يتقولون بأن سفرها القصير إلى الخارج كان سفراً اضطراريا لتغطية فضيحة . وكانت هذه الترهات تصل إلى سمعها فتتجاهلها ، لأنها كانت بطبعها شجاعة مستقلة الرأى

وظلت « أنا » جالسة فى مقعدها معقودة اليدين فى حجرها ، مصغية باهتمام إلى حديث بازاروف العصبى الذى كان يفتقد إلى الترابط على غير عادته . وكان



« وظلت « أناسيرجيفنا » جالسة في مقعدها ، مصغية باهتمام الى حديث بازاروف »

مرجع هذا التفكك إلى أنه كان شعر لأول مرة في حياته باللهفة على أن يروق في عيني من يتحدث اليها ، وقد أدهشت هذه الظاهرة اركادى ، وإن كان قد فشل في تقدير مدى نجاح صاحبه في بلوغ هدفه ، لأن سحنة « أنا » لم تكن تنم عن شيء من التأثير ، وإنما هو الصمت المهذب والاهتمام المتزن !

والحقيقة أنها قدرت خجل بازاروف وعللت به اضطرابه في مفتتح الحديث وقد أثار اهتمامها ، لأنها لم تكن تنفر من شيء إلا التفاهة . ولم يكن بازاروف ممن يتصفون بهذه الصفة في نظر أي إنسان !

وقد دهش اركادى أيضاً لانصراف بازاروف إلى الكلام في الطب وعلم النبات وكانت مدام أوديتسوف فيما يظهر قد استغلت حياتها المنزوية في قراءة عدد ضخم من الكتب العلمية . فلما وجهت موضوع الحديث إلى الموسيقى ، ورأت بازاروف لا يعترف بوجود الفن . عرجت بالحديث فوراً إلى علم النبات ، مع أن اركادى أعرب عن رغبته في مناقشة موضوع الموسيقى القومية . فشعر اركادى أنها لا تزال تعامله معاملة الأخ الأصغر لا أكثر . واستمر ذلك الشعور طوال الساعات الثلاث التي استغرقتها الزيارة !

ونهض الصديقان أخيراً يستأذنان في الانصراف ، فمنحتهما أنا يدها البيضاء الجميلة في لطف ومودة ، ثم أردفت بابتسامة لطيفة تقول :

— إذا لم تخشيا سأم الوحدة ، فهل لكما في زيارتي بضيعة نيكولسكوى؟

فصاح اركادى مبتهجا : « ليكونن لي بهذا أعظم السرور ! »

— وأنت يامسيو بازاروف ؟

فاكتفى بالانحناء ، وأدهش اركادى مرة أخرى أن يرى وجهه محتقناً بالدماء

ولما صارا في عرض الطريق ، قال اركادى لصاحبه :

— والآن ! أما زلت عند رأيك فيها ؟

— لا أستطيع أن أجزم ! . ولكن أي جبل من الثلج قد جعلت من نفسها ؟! ومهما يكن من شيء ، فان لها شخصية طاغية . إنها سيدة عظيمة لا ينقصها إلا التاج !

— ولكن مامن سيدة من عظيماتنا تتكلم الروسية بهذا النقاء !
— كلا !. فانها ياصديقى قد ولدت الولادة الجديدة، وأكلت من خبزنا !
— يا لها من فاتنة !
— كفى كفى بربك !. إن جسدها يختلف عن سائر أجساد النساء !
— أتعنى أن لها جسداً رائعاً يصلح نموذجا لدرس فى التشريح ؟
— هون عليك أيها الساذج الغر !. ألا يكفيك أنى قلت أنها تأتى فى مقدمة النساء ؟.. ينبغى أن نزورها فى دارها !
— متى ؟
— بعد غد . فلم يبق أمامنا مانصنعه هنا
— وأبوك وأمك ؟ أليسا فى انتظارك ؟
— فلينتظرا ..!



كان قصر انا الريفى مقاما فوق ربوة عالية ، بالقرب من كنيسة بنيت من الصخر الأصفر ، ولها سقف أخضر وأعمدة بيضاء على الطراز الايطالى . ومن وراء تلك الكنيسة تقبع القرية فى صفين طويلين من البيوت . أما القصر نفسه فكان مبنياً على طراز يناسب طراز الكنيسة . فالجدران مطلية باللون الأصفر ، والسقف أخضر اللون ، وأعمدة المدخل بيضاء وفوق الباب الكبير نقش شعار الأسرة !

وكان ذلك التناسق نتيجة لقيام مهندس واحد ببناء القصر والكنيسة بتكليف من زوج أنا الراحل اودينتسوف . وعن يمين القصر وعن يساره يمتد البستان العظيم بأشجاره العريقة ودوحاته السامقة !

وقام باستقبال الصديقين فى البهو وصيفان أنيقان ، خف أحدهما فاستدعى كبير الخدم ، وهو رجل بدين يرتدى سترة سوداء ذات ذيل طويل ، فتقدم الضيفين إلى سلم مفروش بالسجاد ، ثم أدخلهما حجرة بها سريران وسائر معدات الزينة ، وكانت النظافة والأناقة ظاهرتين فى كل شىء حولهما ، كأنهما فى أفخم قصور العاصمة !

وقال كبير الخدم قبل أن ينسحب ليتركهما يبدلان ملابسهما :

— ستسر أنا سرجيفنا أيما سرور أن تراكما بعد نصف الساعة . فهل من خدمة أؤديها حتى ذلك الوقت ؟

فقال بازاروف : « كلا أيها الهمام !. اللهم إلا أن تتكلف خاطرك فتأتيني هنا بكوب من الفودكا ! »

— سيكون كما أمرت ياسيدى !

قالها الرجل فى شىء من التردد ، ثم انصرف ، وحينئذ قال بازاروف :

— أى بذخ وأبهة !. ترى كيف تخاطب مضيفتنا ؟ كما يخاطبون الدوقات؟

— نعم ، بل كبار الغراندوقات . ولا سيما أنها دعت سيدين من أوجه رجال الطبقة الارستقراطية وأوسعهم نفوذاً لزيارتها !

— أظنك تشير بذلك إلى خادمك المتواضع ، مشروع الطبيب ، ابن الطبيب ، وحفيد سادن الكنيسة ؟

وضحك الصديقان ليقاوما شعورهما بالضآلة . وفى ختام نصف الساعة دخلا قاعة الاستقبال ، فاذا بها واسعة الأرجاء عالية السقف فاخرة الرياش ، ولكن فى ذوق بعيد عن الرهافة بعض الشيء ، فالأثاث ضخم ثقيل ملتصق بالجدران ، والستائر بنية اللون مذهبة الحواشى . وقد اتضح أن أثاث هذه الحجرة كان المرحوم اودينتسوف قد أوصى بانتقائه من موسكو صديقاً من تجار النبيذ ! وفوق الايوان الذى يتوسط الحجرة صورة كبيرة لرجل متغضن الوجه يبدو كمن يرمق القادمين باستياء شديد . فلما وقع على الصورة نظر بازاروف قال : « إنه هو ! »

وقبل أن يسمع جواب اركادى ، كانت ربة البيت قد دخلت مرتدية ثوبا خفيفاً . وقد عقصت شعرها وراء أذنيها ، فأضفى ذلك على وجهها براءة آسرة وقالت مرحبة :

— شكراً لكما على البر بوعدكما !. وإن كنت أخشى أن تجدا المقام هنا مضجراً . وإنى أعتزم أن أقدمكما إلى أختى وهى عازفة بيان بارعة ، وسيلذ ذلك للمسيو كيرسانوف الذى يهتم بالموسيقى ، أما المسيو بازاروف فأنا أعلم أنه

لايقيم وزنا لهذه الأمور . وهناك أيضاً خالتي العجوز التي تعيش معنا للاثتناس . ويزورنا بعض الجيران من حين إلى آخر للعب الورق . وهـذا هو كل إطار معيشتنا . والآن فلنجلس !

ثم شرعت تتحدث إلى اركادى ، حتى إذا اكتشفا أن والدته كانت تعرف والدتها ، وأنها كانت صاحبـة نجواها حين عشقت نيقولاى بتروفتش والد اركادى ، انطلق الشاب يتحدث بحماسة عن والدته المتوفاة ، في حين انصرف بازاروف إلى تقليب بعض مجموعات الصور . وعلى حين غرة اندفع إلى الحجرة كلب صيد روسى ضخم له طوق أزرق ، ومن ورائه فتاة في الثامنة عشرة ، سمراء ، سوداء الشعر ، مستديرة الوجه ، مليحة الطلعة ، لها عينان صغيرتان داكنتان ، وكانت تحمل سله مليئة بالأزهار ، فأومأت مدام اودينتسوف إلى الفتاة برأسها وقالت : « أختى كاتيا ! »

فجلست كاتيا بجوار أختها وانصرفت إلى تنسيق الزهر ، في حين اقترب الكلب فيفى من الضيفين فدس أنفه البارد في يديهما وهز ذيله مرحبـاً . وسألت أنا أختها : « هل جمعت هذه الأزهار بنفسك ؟ » . فأجابت بالايجاب. ثم سألتها :

— هل ستنضم إلينا خالتك لتناول الشاى ؟

فقالت : « نعم ! » . ولم تزد على ذلك حرفاً ، ولـكن إجاباتها المقتضبة هذه كانت مقرونة دائماً بابتسامة صريحة لطيفة خجول . وكان كل شيء فيها يدل على الشباب والنضارة صوتاً وقداً وخداً ويداً . وكانت الحمرة تصبغ خديها كلما تكلمت . ثم التفتت أنا إلى بازاروف بعد أن فرغت من سؤال أختها ، وقالت له :

— لا شك أنك تقلب هذه الصور لمحض المجاملة . فاقترب منى وهيا نشتبك في مناقشة حامية !

فاقترب منها كما أمرته ثم سألها : « فيم المناقشة ؟ »

— في أى شيء ، ولـكن دعنى أنذرك أولا بأننى خصم مرهوب الجانب !

— أنت ؟

— نعم ولا شك !. أيدهشك هذا ؟. لماذا ؟

— لأن مزاجك كما يبدو لى هادىء خال من الاندفاع !

— بل إنى على العكس قليلة الصبر ، كثيرة التدقيق . وكثيراً ما أندفع !

— ربما ! . أنت أعلم بنفسك ! . ولكن ما دمت راغبة فى المناقشة ، فلنتناقش . وقد سمعتك الآن تقولين وأنا أتأمل هذه المناظر السويسرية أنها لا يمكن أن تثير اهتمامى . ولعلك تريدين بذلك أن الحاسة الفنية تنقصنى . وأنا كذلك . ولكن أليس من الجائز أن تستهوينى هذه المناظر لدلالتها الجيولوجية لا الجمالية ؟

— عفوك ! . ولكن الجيولوجى ربما كان أمتع له أن يشاهد شيئاً محسوسا !

— إن الصورة الواحدة قد تعبر عما يعجز عنه كتاب فى مائة صفحة !

— لعمرى لست أدرى كيف تعيش بغير غريزة فنية ؟

— وأنا أسألك : وما جدوى الغريزة الفنية ؟

— إنها تمكننا على الأقل من تثقيف نظرائنا من البشر !

— العلم يكفى لهذا الغرض . فالعلم هو الذى يدرس العموميات . أما الفن فيدرس الأفراد المتفرقة ، وذلك لا يفيد معرفة لها قيمة . ولما كان الناس جميعاً متشابهين ، تشابه الأشجار فى الغابة ، فمن البلاهة أن ندرس الأفراد ، كما أن من البلاهة أن يدرس عالم النبات جذوع الأشجار جذعاً جذعا !

— تشابه الأشجار فى الغابة ؟. أتظن أنه لافرق هناك بين الغبى والذكى ، وبين الخبيث والطيب ؟. أجاد أنت ؟ !

— كل الجد . فلا خبيث ولا طيب ولا غبى ولا ذكى !

وكانت عيناه تلمعان كأنهما جمرتان وهو يندفع فى شرح وجهة نظره . . ثم قالت هى :

— ما رأيك أنت يا اركادى نيقولايفتش ؟

— إنى أقره على رأيه !

فرمقته كاتيا بنظرة دهشة ، وقالت أنا :

— لقد أدهشتماني ! . وعلى كل حال هذه هي خالتي قادمة ، فلنؤجل المناقشة !

ودخلت الحجرة سيدة ضئيلة الحجم ، خبيثة السحنة والنظرة ، فأومأت إلى الضيفين إيماءة يسيرة ، ثم ارتمت فوق مقعد ضخم مكسو بالمخمل لم يكن مسموحاً لأحد سواها أن يجلس فيه . ولما أسرعت كاتيا فوضعت تحت قدميها وسادة ، لم تشكرها العجوز ، ولم تلتفت إليها ، بل انصرفت إلى تدليك يديها تحت شالها الأصفر . والواقع أنها كانت مغرمة بذلك اللون ، فجعلت منه شرائط قبعتها . وسألتها أنا بصوت مرتفع :

— هل نمت نوماً طيباً يا خالتي ؟

ولكن العجوز لم تجبها ، بل وجهت همها إلى الكلب فيفي الذي كان في طريقه إليها ، وقالت : « لقد دخل هذا الكلب هنا مرة أخرى . أخرجوه ! »

فنادت كاتيا فيفي وفتحت له الباب كي يخرج ، فظن الكلب أنه خارج معها للنزهة ، ولما تبين الحقيقة راح يخدش الباب من الخارج بمخالبه ، مما أثار استياء الأميرة ، وحمل كاتيا على الخروج بنفسها لتهدئة الحالة . وقالت أنا :

— هيا أيها السادة نتناول الشاى . ألك في قدح يا خالتي ؟

فنهضت الأميرة في صمت ، وتصدرت الموكب الصغير إلى قاعة المائدة ، حيث قدم لها الوصيف مقعداً خاصاً بها فغاصت فيه . وصبت كاتيا الشاى ، ثم قدمت لخالتها الفنجان الأول ، وكان مزركشاً بشعار الأسرة ، فأضافت العجوز إليه جانباً من العسل . فإنها كانت ترى في احتساء الشاى بالسكر إسرافاً ممقوتا ، وهي البخيلة المعروفة بشحها . ثم سألت أنا :

— ماذا جاء في خطاب الأمير إيفان ؟

ولم تتلق جوابا ، فأدرك بازاروف واركادى أن الأميرة وإن كانت موضع الاحترام والتقدير ، إلا أنها لا تستأثر باهتمام جدى ، وقال بازاروف في نفسه :

— إنهم يحتفظون بها للذكرى ، وللمظهر !

ولما انتهى الشاى اقترحت أنا القيام بجولة في البستان ، غير أن سقوط بعض الرذاذ حملهم على العودة الى قاعة الاستقبال . وحينئذ حضر الجار الذى

كانت أنا تنتظر وصوله ليلعب معها الورق . وكان يدعى بورفيرى بلاتونتش . وهو رجل دين أشيب الرأس ، مهذب عذب الحديث ، ممشوق الساقين . فسألت أنا بازاروف إن كان يرغب فى مشاركتهما اللعب ، فأجاب بالايجاب ، وعندئذ قالت لأختها كاتيا :

— اذهى واعزفى شيئا على البيان لصديقنا اركادى ، فإنى أعرفه يحب الموسيقى ، وسوف يسرنا نحن أيضا أن نسمعك !

واتجهت كاتيا نحو البيان على مضض ، وكان اركادى أيضا يصغى بغير لهفة ، فقد كان يشعر بأن هذه وسيلة لجأت اليها أنا كى تتخلص منه ، فجعلت عقارب الغيرة تلذع قلبه ذلك اللذع الذى يؤذن لدى أبناء سنه بولادة الحب . ومع ذلك لم يفته أن يلحظ حذق كاتيا فى العزف ، وملاحة خلقتها . فلما انتهت من عزف سوناتا فانتازيا للموسيقى النمسوى موتسار ، سألته دون أن ترفع يديها عن المفاتيح :

— هل اكتفيت ؟

— ليس فى نيتى أن أثقل عليك بالمزيد من العزف !

ثم راح يتحدث إليها عن موتسار ، وعن الموسيقى ، وهى تجيبه بمقاطع مفردة ، إصراراً منها على الانطواء على نفسها . فقد كانت شديدة الخجل ، ولا سيما بحضر شقيقتها الكبرى التى ربتها . ولهذا انتهزت أول فرصة فتركت اركادى لتعبث بأزهارها ، فاضطر اركادى الى الاكتفاء بمداعبة الكلب فيفى !

أما بازاروف فكان يخسر على طول الخط ، لأن أنا وجارها بروفيل كانا لاعبين ماهرين ، حتى بلغت خسارة بازاروف مبلغا يذكر ، وإن كان غير كبير . وبعد العشاء افتتحت أنا مناقشة فى علم النبات ، وانتهت بدعوة بازاروف الى التجول معها فى اليوم التالى فى ساعة مبكرة بين أشجار البستان ، وفى الحقول ، كى يعلمها أسماء الازهار اللاتينية وخصائصها

وحينما خلا الشابان إلى نفسيهما فى المخدع ، قال اركادى :

— إنها امرأة رائعة حقاً !

— نعم ، ان لها عقلا قوياً ولا شك ، وهى أيضاً من ذوات الأحلام !

— ماذا تعنى بالأحلام ؟

— الأحلام بمعناها الطيب ياعزيزى اركادى . وانى واثق بأنها تحسن إدارة ضيعتها ، ولكن الظاهرة التى لفتت نظرى حقاً ليست أنا سرجييفنا ، بل أختها :

— هذه الطفلة ؟

— بعينها !. ان فيها من عناصر النضارة والحياء والتحكم فى النفس مايثير الاهتمام حقاً . فهى مادة أوليــة قابلة للتشكل حسب المراد . أما أنا سرجييفنا فقد تكونت وتبلورت وانتهى أمرها !

ولم يعلق اركادى على هــذا الرأى ، وسرعان ما كان الشابان غارقين فى سبات عميق

وفى هذه الليلة أيضاً فكرت أنا فى ضيفيها فأطالت التفكير ، وكانت تحب فى بازاروف خلوه من التكلف ، ولذع انتقاداته ، وطرافته . وكان ذلك شيئاً جديداً لم تجربه من قبل ، فاستثار حب الاستطلاع لديها

انها أيضاً مخلوقة غريبة الأطوار !. فهى متحررة من كل المعتقدات المسلم بها ، ولا تعترف بأى سلطان إلا للعقل والذوق السليم ، وليست مسئولة عن تصرفاتها أمام أحد ، ولا أطماع لها فى الحياة ولا هدف . ومع ذلك فهى مهتمة بالحياة لا تشعر بالسأم أو الفراغ ، وليست راغبة فى معاناة العواطف الجامحة إزجاء للوقت أو دفعاً للملل . فهى تعيش حياة هادئة ظاهراً وباطناً ، إذا تحرك عقلها لم تتحرك الدماء فى عروقها . ولــكنها مع ذلك لا تخلو من صفة توجد لدى كل النساء اللواتى لم يعرفن طعم الحب ، وهى التطلع إلى شىء مبهم لايدرين ماهو . ولهذا تحس أنها مفتقرة إلى كل شىء . مع أنها ليس ينقصها شىء !

وكانت تجربة زواجها من أودينتسوف الطيب القلب قد أورثتها النفور من الرجال بوجه عام . ولــكنها فى هذه الليلة كانت تحدث نفسها فى مخدعها :

— ما أعجب هذا الرجل بازاروف !

ثم بسطت ذراعيها وتثاءبت . ولم تلبث أن نامت !

ولما فرغت من تناول الافطار فى الصباح ، خرجت مع بازاروف لتفقد

الأزهار . أما اركادى فظل فى البيت تلك الساعة إلى جوار كاتيا التي أبدت هذه المرة استعدادها للعزف له من تلقاء نفسها ، ولم يشعر بمرور الوقت ، ولكن ما وقع نظره على أنا قادمة مع بازاروف حتى وثب قلبه بين ضلوعه . وكانت أنا رائعة الجمال ، وقد توهجت وجنتاها ولمعت عيناها بتأثير النزهة الطويلة فى الخلاء . أما بازاروف فكان يبدو رائق المزاج على غير العادة ، فلم يرق ذلك اركادى ، وإن لام نفسه على ذلك الاحساس !



ان الوقت يمضى مسرعاً كالطائر أحياناً ، ويتلكأ كالسلحفاة أحياناً أخرى. ولكن خير الأوقات هو الوقت الذى لا يشعر المرء بسرعة انقضائه أو بطئه ، وعلى هذا النحو قضى بازاروف واركادى أسبوعين لدى أنا سرجيفنا !

وكانت أنا تلتزم فى حياتها الخاصة ، وفى ادارة قصرها ، نظاماً دقيقاً تتمسك به كل التمسك ، وتطالب الجميع بمراعاته . ففى الساعة الثامنة يلتئم الشمل على مائدة الافطار . حتى إذا نهضوا عن هذه المائدة ترك كل واحد وشأنه حتى ساعة الغداء ، فلكل أن يصنع مابدا له فى تلك السويعات . أما هى نفسها فتخصص ذلك الوقت للاجتماع بناظر الزراعة ووكيل الضيعة ورئيس الخدم ، لأنها هى التي تدير جميع الشئون فى الداخل والخارج بنفسها !

وقبيل العشاء يجتمع الشمل للمحادثة ، أو للاستماع لقراءة بصوت مرتفع . أما سائر السهرة فيخصص للتمشى فى البستان أو لعب الورق أو الاستماع إلى الموسيقى . حتى إذا جاوزت الساعة العاشرة ، نهضت أنا إلى مخدعها الخاص ، حيث تصدر الأوامر بنظام اليوم التالى ، ثم تأوى إلى فراشها !

وغنى عن البيان أن هذا التنظيم الدقيق المتواتر المتشابه ما كان ليروق لصاحبنا بازاروف . فكان يعلق على ذلك من حين إلى آخر بقوله :

— ليت شعرى ، ان هذه الحياة تشعرنى كأنى أجرى على قضبان من حديد!

أما منظر الخدم والحجاب بكسواتهم المزركشة الفاخرة ، وأدبهم الجامد ، فكان يثير أعصابه . وكان يصارح بذلك أنا سيرجيفنا ، فكانت تستمع إلى كلامه حتى النهاية ثم تقول :

— ربما كنت على حق ، ولعلني حقاً أعيش على نمط السيدات المترفات أكثر مما يجب !. ولكن ثق بأن الانسان لا يستطيع أن يعيش في الريف على نمط آخر ، وإلا تداعت روحه المعنوية !

وكذلك استمر النظام الموضوع برغم معارضة بازاروف ، واضطر هو إلى مراعاته . وقد طرأ شيء من التغير على العلاقة بين بازاروف واركادى منذ الليلة الأولى . وظهر هـذا التغير على بازاروف ، ولا شك أن أنا سيرجييفنا كانت تستلطف اندفاعاته الغاضبة وعدم استقراره ، كأن الألغام توشك أن تنفجر تحت قدميه . في حين أدرك اركادى ان صاحبه يعشق مدام أودينتسوف . ونسب إلى ذلك نوبات شروده وكآبته. وكان هو نفسه قد عقد أواصر الصداقة مع كاتيا ، وتمكنت روابط الألفة بينهما ، لما كانت تبديه نحوه من حنان !

والواقع ان الفتاة كانت من الذكاء الخارق بحيث وعت الموقف ، وأدركت ان صحبتها تهون على الفتى بعض ما يجد . ولكنهما لم يكونا يتبادلان كلمة واحدة بمحضر من شقيقتها الكبرى، لأن تلك الشقيقة كانت تشعر كاتيا دائماً بالضآلة ، أما اركادى فكان من المستحيل أن يشتغل بشيء ، ولو في الظاهر ، ما دام في حضرة المعبودة ، اللهم إلا النظر اليها ، وإن أورثته النظرة حسرة ، وأعقبت بعد ذلك خزياً وشعوراً بالدونية . أما إذا خلا إلى كاتيا، فلا أثر لذلك الشعور، وإنما هي الطمأنينة والأنس !

وطبيعي ان اختلاف المشاغل والمشاعر جعل الصديقين لا يتلازمان ساعات النهار كما كان شأنهما من قبل . وطبيعي كذلك أن افتراق القلبين كان أشد من افتراق الجسدين ، فاذا اجتمع الصاحبان لم يعد بازاروف ينتقد مدام أودينتسوف ، ولو بسبب معيشتها الأرستقراطية وسلوكها المفرط في الدقة والتهذيب . وقلل من حماسته في اطناب مزايا كاتيا بعد أن كان أول الأمر يجاهر بتفضيلها على شقيقتها الكبرى بل أكثر من هذا أصبح بازاروف لا يستريح إلى الاختلاء بصديقه ، ويشعر بعدم الارتياح في صحبته !

وما كانت هـذه الظواهر لتفوت شاباً لماحاً مثل اركادى ، ولكنه كتم أمرها في نفسه ولم يفاتح صاحبه في شأنها !

والحقيقة ان العامل الأكبر في هذا التغير هو الشعور الذى ابتعثته مدام أودينتسوف في صدر بازاروف، وهو شعور وقع منه موقع العذاب والخبال. ولو أن انساناً قبل ذلك بأيام تنبأ له بمثل ماوقع له لسخر منه، فقد كان لا يؤمن بالحب ولا بالعواطف الروحانية، بل يرى فيها مساً من الجنون والانحلال! فمذهبه أن من أخذ بجمال امرأة كان عليه أن يسعى إلى قضاء وطره منها، فاذا لم يستطع فله عنها منصرف، فالدنيا واسعة والنساء فيها كثير!

وقد حاول تطبيق المذهب على مدام أودينتسوف، فهاله حين عجز عن نيلها أنه لا يملك لنفسه عنها منصرفاً. وكان في بعض الأحيان يتخيل أن عندها شبيه ما عنده، ولكن ظنه مالبث أن خاب إذ استردت هدوءها المهذب ورقتها الفاترة، وتجمد ملامحها بعد حنان وطراوة، فكان هذا يجعله يضرب الأرض بقدمه ويجذب شعر رأسه غيظا!

وفى ذات يوم، وكان يتمشى معها في الحديقة، قال لها فجأة، وبجفاء في العبارة والنبرة انه أزمع الرحلة وشيكا إلى موطن أبيه، فاذا أنا سرجييفنا وقد شحب وجهها كأنما قد تحرك وتر في قلبها حركة لم تكن تتوقعها، ولم يكن قد فعل ذلك كي يختبرها، فانه يأنف من مثل هذا التكتيك. بل كان الباعث أن ناظر زراعة أبيه حضر صباح ذلك اليوم لمقابلته، وهو رجل مسن سريع البديهة طيب القلب، فبادره بازاروف قائلا:

— ماذا جاء بك؟. هل أرسلوك لإحضارى؟

— كلا أيها السيد الصغير. بل كنت في المدينة لقضاء مصلحة للمزرعة، فخطر لى أن أحيد عن طريقى قليلا لأقدم واجب الاحترام لسيادتكم، لا على نية إزعاجكم!

— لا تكذب!. أهذه طريق المدينة يارجل؟.. كيف حال أبى وأمى؟

— بخير حال والحمد لله

— أظنهما ينتظران قدومى؟

— كيف لا؟. ولكن مبلغ علمى أن قلبيهما متلهفان على رؤيتك!

— لك أن تخبرهما أنى قادم بأسرع وقت!

وفي مساء ذلك اليوم كانت « أنا » جالسة في حجرة زينتها مع بازاروف، بينما اركادى يذرع حجرة الجلوس مصغيا لعزف كاتيا . أما الأميرة فأوت إلى فراشها لأنها لم تكن تستريح إلى صاحبينا . وقالت أنا لبازاروف :

— لماذا تتعجل الرحيل ؟. هل نسيت وعدك ؟

فأجفل بازاروف وسألها : « أي وعد ؟ »

— إذن فقد نسيت !. ألم تعدني بأن تعطيني دروسا في الكيمياء ؟

— وكيف أبر بوعدى ؟. ان أبي ينتظرنى ، ولا ينبغي أن أتأخر بعد هذا يوما واحداً . وفي وسعك أن تكتفي بقراءة كتاب المعلومات العامة في الكيمياء من تأليف بلوز وفريمى

— ولكنك قلت لي انه ما من كتاب يمكن أن يعوض شرح الأستاذ !

— ما باليد حيلة !

فقالت بصوت خافت : « ولكن لماذا تذهب ؟ »

فرمقها بازاروف بنظرة استطلاع وهي تعقد ذراعيها العاريين حتى الكوع فوق صدرها ، ولما رآها شاحبة الوجه قال لها : «وما الذي يدعونى للبقاء؟»

— ألست سعيداً هنا ؟. أتظن أن أحداً لن يأسف لرحيلك ؟

— لا أحد !. إني واثق من هذا .!

— إذن فأنت مخطىء !. ومع ذلك فاني لا أصدقك ، وأحسبك غير جاد!

ولم يقل بازاروف شيئا ، فسألته : « لماذا لا تجيبنى ؟ »

— وماذا أقول ؟. ان الأسف لغياب الناس ليس شيئا ذا بال ، ولا سيما إذا كان لغياب من على شاكلتى !

— ولماذا ؟

— لأننى شخص لا أهمية له ، ولا أحسن الكلام . والاطار الذي تدور فيه حياتك أبعد من يدى منالا ، ومن قلبي وتفكيرى أيضا .!

— ظن ماشئت !. ولكن لاشك أنني سأجد كل شيء ثقيلا بعد ذهابك!

— اركادى سيبقى !

فهزت كتفيها ثم قالت : « ومع هذا سأشعر بالسآمة والملل ! »

— إلى حين غير طويل !. لقد قلت لى من قبل انك لا تشعرين بالضيق إلا حين يضطرب حبل النظام الذى رسمته لمعيشتك . فلا موضع فى هذا النظام الدقيق للسأم ، فبعد بضع دقائق تحل الساعة العاشرة ، وأعرف بالتجربة انك ستصرفيننى من حضرتك !

— كلا !. بل لك أن تبقى . وأرجو لهذه المناسبة أن تفتح هذه النافذة . والآن اجلس وحدثنى عن نفسك ، فانك لم تتحدث إلى فى هـذا الموضوع من قبل !

— أفضل الحديث فى موضوعات أحلى من هذا الموضوع !

— ياللتواضع !. ومع هذا فانى أحب أن أعرف شيئا عنك وعن أسرتك ، وأمك وأبيك

— أسرتى خاملة ، وأهلى لا حيثية لهم ولا جاه ولا نسب !

— فى حين أننى ، كما يخيل اليك ، ارستقراطية ؟ !

— طبعاً !

فابتسمت ثم قالت : « إذن صح عندى أن علمك بأمرى ضئيل ، ولكنك معذور أن تحسب الناس جميعاً على نمط واحد فلا تعنى نفسك بدراسة الأفراد. ومع ذلك فقد أقص عليك قصة حياتى ذات يوم ، أما الآن فانى أريد أن أسمع قصتك أولا ! »

— ربما كنت على حق فى أن معرفتى بك محـدودة ، فأنت مثلا على غناك وذكائك وجمالك تعتزلين الحياة فى الريف مكتفية بصحبة طالبين . فلماذا ؟

— لماذا ؟. ولـكن خبرنى أولا ماذا تعنى بكلمة « جمالك » ؟

— ليس هذا هو صميم الموضوع ، المهم هو سر هذه العزلة وهذا الجمود!

— إذن أنت مصر على الاعتقاد بأن شيئا لا يمكن أن يحركنى ؟

فرشقها بنظرة من تحت حاجبيه ثم قال : « ربما تحركت بدافع الفضول لا بدافع آخر ! »

— أحقاً ؟. إذن لا عجب ألا تتفق . فأنت أيضاً بهذه الصفة . ! وعفواً إذا كنت قد نسيت أنك لا بد الآن أن تكون راغباً فى النوم !

فنهض بازاروف ، أما هي فلم تتحرك . ووقف يحدق فيها وقد سقط عليها ضوء المصباح . وطال وقوفه لحظة وقد تذكر أنه في خلوة مع امرأة جميلة شابة ، فقالت :

— أفلا بد لك من الذهاب ؟!..

فجلس دون أن ينطق ، فاستطردت بصوت خفيض :

— إذن أنت تظنني فتاة مدللة جامدة باردة ؟. والواقع أنني شقية !

— شقية ؟.. ولماذا ؟.. لأن ألسنة السوء تنالك ؟

— كلا !. فكبريائي تعصمني من الاكتراث لكل ذلك ، بل إني شقية لأنني لا أكترث للحياة ولا أتحمس لها !. وأنت تحسبني دمية تافهة من الدمى الارستقراطية المدللة التي كل همها من الدنيا أن ترفل في الدمقس والحرير ، وتجلس في المقعد الوثير !

— أنت شابة ، وغنية ، ومستقلة بأمر نفسك . فماذا تريدين بعد هذا ؟

— ماذا حقاً ؟. لست أدري !. ومبلغ علمي أنني أشعر بالتعب ، وكأنني قد عشت أطول مما يجب !. انها شيخوخة القلب !. ومن وراء هذه الشيخوخة ذكريات كثيرة لحياة كان ميدانها مدينة بطرسبورج ، حيث تقلبت من الثراء إلى الفقر ، ومن الفقر إلى اليتم . ثم تزوجت ورحلت إلى الخارج . ألا ما أكثر هذه الذكريات ، ولكن ما أقفرها من السعادة والعزاء !. إنني إذا نظرت أمامي لا تطاوعني نفسي على مواصلة المسير ! . فليتني أستطيع أن أعتز بشيء في الدنيا وأتعلق به تعلقاً قويا . !

— ربما أنقذك أن تقعي في الحب ، ولكنك غير كفء لذلك ، وهذا سر بلائك !

فغضت بصرها وعبثت أناملها بكمها وهمست : « أحقاً أنني غير كفء أنا للحب ؟! »

— ليس كما يجب !. ومهما يكن من أمر فقد أخطأت إذ عددت ذلك بلاء . فان الحب فيما أعلم هو أعظم البلايا التي تصيب الانسان !

— ومن أين لك أن تعلم ؟

فأجابها بجفاء وحدة : « تراهى إلى سمعى ذلك ! »

وقال فيما بينه وبين نفسه ، وقد أخذ قلبه ينتفض : « أراك تلهين بالعبث بى ودفعى للجنون ! »

أما هى فأجابته : « ولكنى أعتقد أنك تتكلم عن تجربة ! »

— كلا !. وإنما هو كلام ، كلام لاقيمة له !

وترامت إلى سمعهما أنغام البيان من حجرة الجلوس ، فقالت أناسير جيفنا:

— كيف تعزف كاتيا فى هذا الوقت المتأخر ؟

فرفع بازاروف رأسه ثم قال :

— نعم . الوقت متأخر حقاً ، وآن لك أن تستريحى!

— انتظر لحظة .. لماذا تستعجل الانصراف ؟. مازال عندى شيء أريد أن أقوله لك !

— وما هو ؟..

— انتظر ...

ثم راحت تحدق فيه كأنها تدرس شخصيته ، وشرع هو يذرع الحجرة صامتاً بضع لحظات ، ثم وقف أمامها فجأة وقال : « طاب مساؤك ! »

وشد على يدها شداً قويا جداً حتى أوشكت أن تصرخ ألما ، ثم انصرف ، فرفعت الأصابع التى كان يسحقها فى يده إلى شفتيها وأرسلت فى أثره قبلة ، ثم نهضت بحركة مفاجئة مندفعة وجرت نحو الباب كأنها تهم أن تستعيده . ولكن الخادم دخلت فى هذه اللحظة تحمل قدح اللبن فوق خوان من الفضة ، فتماسكت أنا ، وأمرت الخادمة بالانصراف ، ثم ألقت بنفسها فوق المقعد واستغرقت فى أحلام اليقظة وقد أفلت شعرها من مشابكه فراح يتلوى كأنه ثعبان كبير أسود فوق نحرها المرمرى !

وجلست جامدة فى ضوء المصباح الخافت ، لاتصدر عنها حركة سوى دلك راحتيها بين حين وآخر ، لأن البرودة أخذت تزداد مع تقدم الليل!

ودخل بازاروف مخدعه بعد ساعتين مشعث الثياب والشعر ، مبلل الحذاء بالندى . وكان اركادى جالساً بثيابه الكاملة إلى المكتب وبين يديه كتاب ، فقال بازاروف بلهجة جافة : « إذن أنت لم تنم بعد ؟ »

فلم يجبه اركادى عن سؤاله ، بل سأله بدوره :

— هل كنت جالساً مع أنا سيرجييفنا ؟

— نعم ! كنت جالساً هناك حينما كنتَ أنت تعزف البيان مع كاتيا !

— إنى لم أكن أعزف ، بل هى التى عزفت !

ولكنه سكت عند هذا ، لأنه شعر بالدموع تكاد تطفر إلى عينيه ، ولم يكن يحب أن يذرفها بمرأى من صديقه الساخر !



عاصفة فى قلب

حينما دخلت انا سرجييفنا قاعة الإفطار فى الصباح التالى ، كان بازاروف مازال مطرقا يفكر ، وفى يده فنجان الشاى ، فلما شعر بدخولها حين فتحت الباب رشقها بنظرة صارمة ، جعلتها تتجه ناحيته دون وعى منها !

/وكان وجهها شاحباً ، ولم يطل لبثها فى القاعة ثم عادت إلى حجرة زينتها لم تفارقها إلى أن حان موعد الغداء . وكان الجو قد أصبح ماطرآمنذ الفجر فما كان ليسمح بالخروج ، لهذا عكف بازاروف على القراءة فى حجرة الجلوس . وبعد الغداء قالت انا سرجييفنا لبازاروف :

— أرجو أن تأتى إلى حجرة زينتى ، فانى أريد أن أتحدث اليك عن كتاب أشرت اليه بالأمس .

ثم خرجت غير ملتفتة إلى أحد ، حتى ولا إلى خالتها الأميرة ، التى بدت عليها الدهشة البالغة . أما اركادى فاستمر فى القراءة ، ولكن بصوت أعلى عن ذى قبل !

وقد اتجهت انا مسرعة إلى حجرة زينتها ، ومضى من ورائها بازاروف مطرقا ، وكأنه يصيخ السمع لوسوسة ثوبها الحريرى . فلما بلغت غايتها جلست فى مقعد الأمس ، كما جلس بازاروف فى مقعده الذى كان يحتله أمس أيضاً . وبعد صمت قصير قالت له :

— عفوك !. لم آت بك إلى هنا للحديث عن الكتب والمؤلفين ، بل لنجدد شأن ما كنا نتحدث فيه بالأمس حين غادرت الحجرة فجأة . فأرجو ألا يضايقك هذا .!

— إنى رهين إشارتك !. فماذا كان موضوع الحديث ؟

فرمقته بنظرة ثابتة ثم قالت :

— السعاده فيما أظن !. والواقع أنني كنت أتحدث اليك عن نفسي ، والسبب الذي دعاني للاشارة إلى السعادة هو هذا ... لماذا يحس الانسان حين يستمتع مثلا بقطعة موسيقية أو أمسية جميلة من أمسيات الصيف أو حديث لطيف مع صديق ، لماذا يحس حينئذ أن هذه المتعة العابرة انما هي إشارة أو لمحة من سعادة لامتناهية في عالم آخر، وليست سعادة واقعية واقعة تحت الحس ؟. أم تراك لم تجرب هذه الظاهرة ؟

— يقول المثل يشتهي الانسان أن يكون حيث لايكون . وقد قلت بالأمس انك ساخطة غير قانعة . ولكنني لا أتصور ماتقولين ولا يخطر لي ببال !

— هل تبدو لك هذه الأفكار إذن بلهاء ؟

— كلا !. بل هي فقط لاتخطر ببالي !

— حقاً ؟. ما أشد رغبتي في معرفة مايخطر لك من الأفكار !

— لست أفهم مرامك !

— اسمع إذن .. لقد مضى وقت طويل وأنا أفكر في الافضاء اليك بما عندي . ولا تحاول أن تزعم لي أنك إنسان شاذ تختلف عن الناس ؛ فالواقع أنك رجل في طور الشباب ، والحياة كلها بين يديك ، فأحب أن أعلم لأي شيء تعد نفسك ؟. وأي مستقبل ينتظرك ؟. وما هو الهدف الذي تسعى لبلوغه ؟. وماذا يدور في رأسك ؟. وأي رجل أنت ؟

— إني لأعجب !. إنك قد علمت أنني الآن أدرس العلم الطبيعي . أما مستقبلي ...

— نعم ؟. ماذا عن مستقبلك ؟

— قلت لك من قبل انني أريد أن أغدو طبيب منطقة في الريف !

فأشارت بيدها إشارة تدل على نفاد الصبر وقالت له :

— لماذا تزعم لي ذلك وأنت نفسك غير مؤمن به ؟. دع مثل هذا الجواب لاركادي ...؟

— أتعنين أن أركادي . . . ؟

— على رسلك ، أتريد أن توهمنى بأنك تقنع حقاً بمثل ذلك الدور المتواضع في الحياة ؟. إنى لم أخرج من جوابك هـذا إلا بأنك تريدنى غير قريبة من نفسك ، فأنت لاتؤمن بى حتى تكاشفنى بطويتك . فهل تسمح لى إذن بأن أقول لك إنى كفء لفهمك حق الفهم ، فقـد عرفت الفقر والطموح كما عرفتهما ، ولى مثلك تجاربى

— عفوك !. فما تعودت أن أكشف عن نفسى الغطاء . ثم إن بيننا برزخا !

— برزخ ؟ أتعود إلى دعواك أنى ارستقراطية ؟

— وما جدوى الكلام عن المستقبل، ومستقبلانا متباعدان نوعا واتجاها؟. أكرم لنا ألا نضيع الوقت فى ثرثرة بليدة لاغناء فيها !

— ماذا تقول ؟ . أتسمى حديث الصداقة الصريحة ثرثرة بليدة لاغناء فيها ؟. أم أنت ترانى امرأة غير جديرة بنجواك لأنك تزدرى جميع النساء ؟

— أنت لست عندى عزدراة !. وقد علمتْ هذا علم اليقين !

— ماعلمت شيئا من ذلك ، وإنى أقدر طبعاً صدودك عن الخوض فى حديث مستقبلك ، ولكن مايختلج فى صدرك فى هذه اللحظة ؟

— مايختلج فى صدرى فى هذه اللحظة ؟

— نعم !. مايدور فى صدرك الآن هو الذى لست أرى مايمنعك من بيانه!

— وهل تراك أنت تستطيعين بيان مافى نفسك ؟

— أجل !

فانحنى لها ساخراً وقال : « هذه مزية ليست لى ! »

— ليكن إذن . وإنى أبيح لنفسى أن أقول أنى وإياك لم نلتق عبثاً ، وأننا سنظل دائما صديقين حميمين . وأعتقـد اعتقاداً جازما أن انطواءك وتحفظك سيتلاشيان بمرور الوقت حتما !

— هل ترينى إذن شديد الانطواء والتحفظ ؟

— نعم !

فنهض بازاروف واتجه نحو النافذة ثم سألها :

— أتريدين حقاً أن تعرف سبب انطوائي وتحفظي ؟. أتريدين حقاً أن تطلعي على ما يدور في قلبي الآن ؟

— نعم أريد !

— وهل سوف لا تغضبين لما سأقول ؟

— كلا

واقترب منها حتى وقف وراءها ثم قال : « اعلمي إذن أنني أحبك حباً أعمى لا عقل فيه ولا بصر له . وها قد انتزعت مني هذا الاعتراف أخيراً ! »

فمدت ذراعيها أمامها ، أما بازاروف فدار على عقبيه وراح يضغط بجبهته مصراع النافذة وقد اختلجت أنفاسه في حلقه ، وراح جسده كله يرجف ، أما أنا فاستولى عليها ذعر هائل ، يمازجه إحساس طاغ بالرثاء له ، وصاحت في حنان لا إرادي :

— أي .. بازاروف .. بازاروف ..

فالتفت نحوها والتهمها بنظراته ثم قبض على يدها وضغطها فوق صدره . فلم تجذب يدها على الفور ، بل انتظرت لحظة ثم انسحبت إلى ركن فوقفت فيه تنظر اليه ، فاندفع نحوها مرة أخرى ، فقالت له هامسة في رعب ولهفة :

— لقد أخطأت مرادي ! .

ولو أنه خطا بعد ذلك خطوة واحدة لكانت قمينة أن تصرخ مستغيثة ، فعض على شفتيه بنواجذه ثم غادر الغرفة !

وبعد نصف الساعة أحضرت اليها خادمتها رقعة فيها سطر واحد :

— هل أرحل اليوم ، أو أنتظر حتى غد ؟

فأجابت أنا تحت هذا السطر :

— لماذا ترحل ؟. لقد أخطأت فهمك كما أخطأت فهمي. وهذا كل شيء !

ولكنها أضافت بينها وبين نفسها :

— بل أخطأت أيضاً فهم نفسي !

وظلت معتكفة إلى موعد العشاء ، وقضت ذلك الوقت في ذرع حجرتها معقودة اليدين وراء ظهرها ، وكانت تقف قليلا بين الحين والحين أمام المرآة

فتمسح العرق عن رقبتها وتتساءل عما أغراها بأن تحمل بازاروف على ذلك الاعتراف . ثم انتهت إلى أنها هي الملومة ، لأنها لم تخل من شك في الموضوع منذ البداية ، وإن كانت طبعاً لاتظن المسألة قد وصلت إلى هذا الحد. وتذكرت سحنة بازاروف الحيوانية وهو يندفع نحوها كي يحتويها بين ذراعيه ، فتضرج وجهها ، وألقت على نفسها في المرآة نظرة أخيرة كشفت لها عن سحر مفاتنها فقالت :

— كلا ثم كلا !. هذا طريق لايعلم مداه إلا الله .. والعبث بهذه الأمور غير مأمون العاقبة . وليس في هـذه الحياة الدنيا كلها مايساوي خلو البال ، فلنحرص عليه ولا نستبدل به القلق والعذاب !

ثم ذرفت دمعة أو دمعتين ، لم تصدرا عن شعور عميق ، بل من أثر الجرح الذي أصاب عزة نفسها إذ اعترفت بسوء فعلها وتنكبها الصراط الذي التزمته حتى ذلك الحين !



لم تخل أنا سرجييفنا رغم قوة إرادتها وسيطرتها على نفسهـا من شعور بالحرج وعدم الارتياح وهي تدخل قاعة الطعام لتناول وجبة المساء .ومع ذلك فقد انقضت تلك الوجبة بغير حادث،ثم حضر بروفيري بلاتونيتش للعب الورق وروى جملة نوادر ، في حين كان اركادي منصرفاً إلى الحديث همساً مع كاتيا، أما بازاروف فلزم الصمت في وجوم وإصرار ، حتى ان أنا حدقت فيه مرتين تحديقاً صريحاً ، ثم قالت لنفسها باصرار :

— كلا حقاً . ثم ألف كلا !

وهبطت بضيوفها إلى الحديقة ، وهنـاك لاحظت أن بازاروف راغب في الحديث اليها على انفراد ، فهيأت له تلك الفرصة ، فاقترب منها وعيناه مثبتتان في الأرض ، ثم قال في بلادة :

— أسألك العفو يا أنا سيرجييفنا ، ولا أظنك إلا غاضبة علي جداً ؟

— كلا !. لست غاضبة بقدر ما أنا آسفة محزونة !

— هذا أدهى وأمر !. ولـكنني تلقيت من العقاب ما يكفي،أليس كذلك؟

ان موقفي الآن دقيق جداً ، من أجل ذلك كتبت لى انه لا حاجة بي إلى الرحيل، ولكنى أنا لا أستطيع البقاء ، وسوف لا أبقى . فغداً أرحل من هنا !

— ولكن لماذا ...؟

— لماذا أرحل ؟

— كلا !. كنت أريد أن أقول شيئاً آخر !

— لا فائدة في تدارك مافات !. وماوقع كان لابد أن يقع. ولست أعرف إلا حالة واحدة يمكنني معها أن أبقى . ولست أظن أن هذه الحالة يمكن أن تكون ، لأنى لا أظن أنك تحبينني أو يمكن أن تحبيني يوماً !

وقدحت عيناه بالشرر ، أما هي فلم تجبه ، ولكنها شعرت بالخوف منه !. ثم قال لها : « وداعاً ! » . وابتعد متجهاً إلى القصر !

ولما دخلت هي إلى القصر بعد قليل ، دعت كاتيا فتأبطت ذراعها ولم تتركها طول السهرة لحظة واحدة ، وراحت تتصنع الضحك أثناء اللعب ، حتى لفت ذلك نظر اركادى ، ولم يفته ما في مرحها من تكلف !

أما بازاروف فأغلق على نفسه الحجرة ولم يظهر إلا عند تقديم الشاى . وعندئذ فكرت أنا في كلمة رقيقة توجهها اليه، ولكنها لم توفق إلى تلك الكلمة، إلى أن أنقذها من هذه الحيرة دخول كبير الخدم معلناً قدوم سيتنيكوف !

ولن نستطيع مهما أوتينا من بلاغة أن نصف منظر دخول سيتنيكوف ، فقد شحذ هذا الفتى التقدمى كل مالديه من شجاعة كي يتوجه إلى مقر سيدة كانت معرفته بها سطحية جداً ، وهي فضلا عن هذا لم توجه اليه الدعوة . وكان عذره أمام نفسه انها تستضيف في بيتها شابين على شا كلته من أصحاب الذهنيات، وأن هذين الشابين يمتان اليه بصلة من الصداقة وثيقة . أما السبب الذى تذرع به لتبرير تلك الزيارة لدى ربة الدار فهو مازعمه من أن مدام كوكشين أرسلته للسؤال عن صحة مدام أودينتسوف ، ثم تطرق من ذلك بغير تدرج أو تمهيد إلى الكلام عن نفسه ، وكيف أنه موضع احترام الجميع ، وأولهم اركادى نيقولايفتش . وما أن وصل إلى هذه النقطة حتى ارتج عليه وأخذ يتلعثم ، وبلغ من ارتباكه أنه جلس فوق قبعته !. ومع هذا لم تفكر مدام أودينتسوف

فى طرده ، بل تلطفت معه إلى حد تقديمه إلى خالتها وأختهــا الصغرى ، وقد أجدى عليه ذلك كثيراً ، إذ سرعان ماastرد توازنه وعاد إلى إشراقه المألوف. ولـكن وجوده زاد الجو ثقلا وتفاهة ، ومع هــذا فقد أفاد فى تخفيف حدة التوتر ، فزادت شهية الجماعة تلك الليلة على مائدة العشاء ، كما أفاد فى التعجيل بموعد النوم تلك الليلة نصف ساعة !

وحين خلا الصديقان إلى مخدعهما قال بازاروف لصاحبه :

— قد اعتزمت أن أرحل غداً إلى بيت أبى !

— آه . هذا إذن هو السبب فيما يبدو عليك من الوجوم ؟

— حينما تتقدم بك السن قليلا ياصاحبى ستزداد مداركك اتساعاً !

— وماذا عن آنا سيرجييفنا ؟

— ماذا عنها ؟

— أفى نيتها أن تسمح لك بالرحيل ؟

— لست أجيرها !

فساد الصمت بينهما لحظة ، وأدار بازاروف وجهه نحو الحائط ، إلى أن قال اركادى :

— إسمع يا الجينى ، لقد انتويت ان أرحل أنا أيضاً غداً . وسأصحبك فى الطريق حتى خوخلوفسكى ، وهناك تستطيع أن تستأجر جياداً توصلك إلى غايتك ، وكنت أود بطبيعة الحال لو أتيح لى ان أتعرف إلى والديك . ولـكن لو أننى صحبتك لأثقلت عليك وعليهما. وياحبذا لو زرتنا مرة أخرى فى مارينو !

— سأفعل !. إذ انى قد نسيت هناك بعض أدواتى !

— ولـكن لماذا لم تسألنى عن سبب انتواء الرحيل ؟. ولماذا نرحل كلانا ؟

ولم يجبه بازاروف ، فراح قلبه يحدثه بذلك السبب، فانه يعلم أن بينها وبين صاحبه شيئاً ، وهو لا يريد أن يثقل عليها بعد رحيل صاحبه ، ويضيع بذلك كل فرصة للمستقبل ، ولـكنه أحس ان سفره سيورثه الحسرة ، لا على فراقه آنا سيرجييفنا ، بل لحرمانه أيضاً من صحبة كاتيا . ووجد نفسه يسأل بازاروف مرة أخرى بصوت عال :

— ما الذى جاء وحق الشيطان بهذا الأحمق سيتنيكوف ؟

— وأنت نفسك أحمق. فنحن بحاجة إلى أمثال سيتنيكوف فى هذه الدنيا. كى يخدمونا فالآلهة كما تعلم لا يمكن أن تصنع بيديها الفخار !.

— أتعنى بذلك اننى ، أنت وأنا ، من الآلهة ؟ أم عساك تعنى اننى أيضاً حمار ؟

— أنت حمار !

ولم تظهر مدام أودينتسوف أدنى دهشة حين أعلنها اركادى فى الصباح التالى برحيله مع بازاروف . بل كان يبدو عليهـا التعب والاعياء . أما كاتيا فنظرت اليه فى جد صامت . فى حين بهت سيتنيكوف الذى كان قد دخل لتوه قاعة الافطار فى بذلة أنيقة جديدة ، فأدهشه أن يفاجأ بهجرة صاحبيه ، وأخيراً قال فى ذعر وجزع مكتومين كتماناً فاشلا :

— أنا أيضاً أفكر جدياً فى الرحيل !. وعربتى تسعنى أنا واركادى .وفى وسع بازاروف أن يستخدم عربة اركادى الصغيرة . أليس كذلك يا اركادى ؟

— ان الطريق إلى بيتى بعيد عن اتجاهك !

— لا بأس !. فعندى مصلحة أقضيها فى تلك الجهة، ثم انى لست متعجلا!

وعندئذ قالت أنا سيرجييفنا لاركادى :

— لاتخجل المسيو سيتنيكوف بالرفض !

فلما انتهى الافطار مدت أنا سيرجييفنا يدها إلى بازاروف قائلة :

— أرجو أن نتقابل مرة أخرى !

— لن يكون ذلك إلا ان أردت أنت !

— إذن سوف نتقابل !

وكان اركادى أول الراكبين ، وقد أعانه كبير الخدم على الركوب ، وود اركادى لو لطمه أو لو انفجر باكياً لما شعر به من الحزن والقهر والغيرة . أما بازاروف فركب العربة الأخرى . وعنـد مفترق الطرق وجد اركادى نفسه يقول لبازاروف بابتسامته المعهودة :

— خذنى معك !

— اركب إذن

ولم ينتظر اركادى إلحاحاً ، بل نقل أمتعته وانطلقت بهما العربة وسيتنيكوف لا يزال فاغر الفم من الدهشة ، إلى أن أفاق فنهر سائقه في غيظ كي يسرع ، فوصل إلى المدينة في ساعة متأخرة حيث بات ليلته وبكر في الصباح التالى بالذهاب إلى بيت مدام كوكشين ليعلن اليها أنه قد نفض يده من هذين المفلوكين !

وسلخ الصديقان مسافة طويلة غارقين في الصمت ، إلى أن طلب اركادي من بازاروف سيجاراً ، ثم راح يستدرجه إلى الكلام :

— أراك قد تغيرت كثيراً في المدة الأخيرة

— أعتقد ذلك !. ولكن أعدك بأن أعود إلى سابق شأني سريعاً . ان أمى هى أهم مايشغل ذهنى الآن ، فانها امرأة طيبة القلب على الفطرة ، وإذا لم يأكل الانسان عشر مرات في اليوم اغتمت وحسبته مريضاً . أما أبي فقد خبر الدنيا !

وعاد إلى الصمت لحظة طويلة ، ثم قال فجأة :

— اسمع يا اركادى ، خذها مني نصيحة تنفعك وأنت لاتزال في مقتبل العمر : خير لك أن تشتغل بتكسير الحجارة في الجبل من أن تلق زمامك إلى امرأة أياً كانت. فالمرأة مادخلت حياة رجل إلا أفسدتها. فاذا لم نستطع الابتعاد عن النساء إطلاقا فلنعاملهن معاملة ظاهرية ، كأنهن من دواب الحقل !

ثم التفت إلى السائق الفلاح فسأله بصوت مرتفع :

— ألك أيها الشيخ الحكيم زوجة ؟

— زوجة ؟. نعم طبعا . ولم لا ؟

— وهل تضربها ؟

— أضرب زوجتي ؟. أحيانا .! ولكن لا أضربها إلا بسبب وجيه !

— جميل !. وهل لاتضربك هى ؟

فجذب الرجل عنان الخيل وصاح مبهوتا : « ماذا تقول أيها السيد ؟ لا شك انك تمزح ! »

— أسمعت يا اركادى نيقولايفتش ؟ أما أنا وأنت فقد ضربتنا امرأة

فضحك اركادى برغم أنفه ، وأشاح بوجهه فلم يتكلم حتى نهاية الرحلة . وكان قد بقى على نهايتها نحو خمسة وعشرين فرسخا بدت له وكأنها خمسون !

وأخيراً ظهر بيت آل بازاروف على سفح تل منخفض ، وكان على باب البيت فلاحان مشتبكين فى مشاجرة حامية ويتقاذفان أقذع السباب ، فقال بازاروف كالمعتذر :

— هذا يدلك على أن أبى ليس طاغية مستبداً مع فلاحيه .! ولكن هذا هو أبى بنفسه يظهر فى الشرفة ، ولا شك أنه سمع أصوات الأجراس الصغيرة المعلقة فى أعناق الخيل !. أجل لا شك انه هو ، فقد عرفت وجهه ، ولكن كم دب الشيب إلى رأسه !



نزل بازاروف من المركبة ، وأبصر اركادى من ورائه وهو نازل رجلا رفيع القامة طويلها مقوس الأنف واقفاً فوق شرفة الدار وقد تزمل بمعطف عسكرى مفتوح الصدر ، وكانت ساقاه متباعدتان وغليونه فى فمه . وكان هذا الرجل والد بازاروف الذى هجم على ابنه وراح يعانقه مراراً وتكراراً وهو يناديه بأسماء التدليل . ولم تلبث أم بازاروف أن أقبلت تتعثر وصيحات الفرح تخرج مرتجفة مختلطة من فمها . وكانت امرأة قصيرة القامة عجوزاً فوق رأسها طاقية بيضاء . وكادت المسكينة تسقط على الأرض وهى تتعثر لولا أن أدركتها ذراع ابنها فى الوقت المناسب فالتف ذراعاها السمينان المتهدلان حول عنق بازاروف وغاص وجهها المتغضن فى صدره وظلت صامتة لحظة لأن البكاء كان يخنقها ، ثم ارتفعت زفراتها . وكان الأب فى أثناء ذلك يتنفس فى صعوبة وعمق ، وعيناه تختلجان فى سرعة عصبية . ثم راح يهدىء امرأته التى لم تطلق رقبة وحيدها وهى تقول كالمعتذرة :

— ما أطول الأيام التى حرمنا فيها رؤيتك ياولدى العزيز !

وظلت متشبثة بعنقه ، وهى ترفع رأسها عن صدره لتتطلع إلى وجهه بعينيها المبللتين بالدموع ، ثم تدفنهما فى صدره مرة أخرى ، فقال بازاروف :

— نعم نعم . هذه هي طبيعة الأشياء . ولـكن أليس من الخير أن ندخل الدار ؟ لقد أحضرت معي ضيفاً !

وأسرع والد بازاروف يعتذر إلى اركادى عن انطلاق امرأته منساقة مع عواطفها ، وكان وهو يعتذر يثير الاشفاق حقاً ، فان ذقنه وحاجبه كانت كلها ترتعد ، مما يدل على أن الرجل المسكين كان يبذل جهـداً جباراً للسيطرة على عواطفه ، وأنه لم يكن أقل من زوجته تأثراً وانفعالا !

وتم التعارف المبدئى ، ثم دخل الجميع الدار ، ورب البيت يعتذر عن رقة حاله ، ثم ثابت الأم قليلا إلى نفسها فرحبت بالضيف فى جملة أو جملتين واستأذنت لتقوم بحق الضيافة ولـكنها لم تخرج من الحجرة إلا بعد أن هجمت على بازاروف ثانية :

— قبلة أخرى أولا يا انيوشا !. آه ! لـكم غدوت فتي وسيما . !

وكانت دار آل بازاروف تضم ست حجرات صغيرة من بينها حجرة مكتب ومنضدة فوقها أوراق وصحف يعلوها التراب ، ومجموعة من الأسلحة القديمة واللوحات التشريحية ، وصور أعلام الطب ، مكدساً بعضها فوق بعض . وقد آثر رب الدار أن يجلس فى هذه الحجرة ، ثم راح يحـدث ولده عن الجناح الجديد الذى أضافه إلى البيت فى غضون السنوات الثلاث التى تغيبها بازاروف ، ثم اتضح أن هـذا الجناح كان حجرة حمام تلحق بها حجرة صغيرة يمكن ان تتسع لأركادى . وكان الرجل شديد البساطة ، ظاهر التعلق بابنه الوحيـد ، مولعاً بالتبسط والارضاء وبالظهور بمظهر عصرى . ومع هذا فقد أخذ الرجل بما بدا على ابنه أثناء الحديث الأول بينهما انتظاراً لتجهيز الطعام من ازدراء لـكل ما هو مقرر حتى فى القواعد الطبيـة ، بيد أن ذلك لم يقلل من اعجاب الرجل بابنه واعتقاد التفوق الخارق فيه . فكان يبادر إلى موافقته على آرائه العجيبة قائلا :

— ربما كان الأمر كما تقول !. فلست مستعداً لمناقشتك فى هذه النقطة ، فمن أنا حتي أتناقش فى هـذه الأمور ؟ . ما أنا إلا طبيب عسكرى متقاعد ، لا أكثر — طبيب عسكرى ترك الطب والدرس إلى الزراعة !

ثم يلتفت إلى اركادى فيقول :

— أتعلم أننى خدمت فى الجيش تحت رياسة جدك ؟

ثم انطلق يحدثه عن ذكريات تلك الأيام، مبديا تقديره للمرحوم كيرسانوف ولكن ابنه نقل الحديث بجفاء من جد اركادى إلى المزروعات الجديدة التى استحدثها أبوه فى الحديقة !

أما الطعام الذى أعدته الأم على عجل فكان رائعاً فى الواقع ، بل فاخراً . ولم يكن فيه مايعاب إلا نوع النبيذ الذى لم يكن من طبقة تضاهى الألوان المقدمة على تلك المائدة المتواضعة . وكانت الأم وهى تقدم الطعام تمسح عينيها وأنفها الحمر وهى تردد :

— ثلاث سنوات لم أقدم فيها الطعام إلى انيوشا الصغير . كل يا أنيوشا . !

والواقع أن العجوزين لم يكادا يأكلان شيئا ، أما الشابان فأبليا بلاء حسناً وقد أجرى الأب الحديث عن السياسة الخارجية التي ينتهجها نابليون الثالث وما تثيره فى صدره من المخاوف ، حتى إذا انتهى الطعام خرج الرجل الكبير من الحجرة مسرعا ليعود وفى يده زجاجة من الشمبانيا فشرب الرجال الثلاثة نخب هذه المناسبة السعيدة ، ثم قدمت الحلوى ، فلم يجد اركادى بدا — على كراهته لهذا الصنف — أن يتناول شيئا للمجاملة ، أما بازاروف فرفض بفظاظة ثم أشعل غليونه !

وبعد ان قدم الشاى قاد الأب الشابين إلى الحديقة ، فاقتعدوا مقعداً خشبياً هناك وقال الرجل مشيراً إلى المنظر الجميل من حوله :

— هذا هو المكان الذى أحب أن أخلو فيه إلى نفسى كى أرقب الشمس الغاربة . وهو كما ترون مكان أصلح مايكون لناسك مثلى . وقد غرست فى هذا الموضع بضع أشجار كان يحبها الشاعر هوراس ، وهى أشجار الاكاسيا

وعندئذ راح بازاروف يتثاءب ، فبادر أبوه قائلا :

— أظنكما بحاجة إلى الراحة فى وادى الأحلام بعد سفركما الطويل !

— صدقت يا أبتاه !

ثم حيا والدته تحية المساء ، فقبل جبينها وقبلته فوق خديه ثم باركته ، أما

الأب فصحب اركادى إلى حجرته حيث تركه بعد تحية رقيقة !

والحق أن اركادى نام تلك الليلة نوما عميقاً متصلا فى ذلك المكان الهادىء الذى لم تكن تعكره إلا أصوات جنادب الحقل !

أما الأب فانه لم يذهب إلى مخدعه إذ ودع اركادى ، بل توجه إلى حجرة المكتب ، وفى مرجوه أن يحظى بحديث مع ولده على انفراد. فجلس على طرف الأريكة التى كان يحتلها بازاروف ، بيد أن بازاروف صرفه بجفاء متعللا برغبته فى النوم !

والواقع أن بازاروف لم يغمض له فى تلك الليلة جفن، بل بات ليلته محدقا فى ظلام الليل ، لأن ذكريات الطفولة السعيدة كانت أضعف سلطانا عليه من المحنة الماثلة التى مر بها فى عهده الأخير مع سرجييفنا !

وأما والدته فصلت صلاة المساء بقلب طافح بالسعادة ، ثم اشتركت فى حديث طويل جداً مع خادمتها العجوز انفيسوشكا، أدلت فيه الأخيرة بآرائها وملاحظاتها عن السيد الصغير ، والواقع أن أم بازاروف ، واسمها ارينا فلاسييفنا ، كانت نموذجا للزوجة الروسية سيدة البيت من الطراز القديم ، بمعنى أنها كان ينبغى أن تعيش قبل زمنها بمائتى سنة ، فهى تقية ورعة ، تؤمن أشد الايمان بكل مثل سائر وكل أسطورة عن الأولياء وكراماتهم ، وترى فى الأحجبة والتعاويذ مالا تراه فى الطب الحديث . ومع حبها للأكل الجيد كانت تصوم بتحرج كل يوم توصى الكنيسة بالصيام فيه . وعلى حبها للنوم ، فهى لاتنام أقل من عشر ساعات كل يوم ، لايمكن أن يغمض لها جفن إذا شكا زوجها فاسيلى ايفانتش صداعا يسيراً . ولم تكن تقرأ من الكتب إلا سير القديسين ، ولا تكتب إلا خطابين فى كل سنة . وأما أمور هذه الضيعة التى كانت ملكا خاصاً موروثاً لها فكانت تجهل عنها كل شيء لأنها تركت أمرها على اطلاقه لزوجها . فلم يكن لها هم إلا الطهو والخبز وصناعة الفطائر والحلوى . فهى تحب ذلك كله وتعرف فنونه جميعاً ، ولكنها لاتمد اليه يداً بنفسها ، بل مبلغ همها أن تأمر وتنهى وترقب الخدم والعبيد وهم يعملون . فهى من ذلك الطراز الذى يؤمن إيمانا

راسخاً بأن الناس خلقوا صنفين : صنف للأمر والسلطان ، والصنف الآخر للطاعة والاذعان !

وليس معنى ذلك أنها كانت من أهل الغطرسة والجبروت ، بل انها أرق الناس قلباً وأكثرهم عطفاً على خدمها وعبيدها ، ولا تعاقب أحـداً منهم على غلطة ارتكبها ، وان كانت تعمد أحيانا إلى التوبيخ !

ويقال إنها كانت فى صباها جميلة الصورة ، تحسن العزف على آلة موسيقية، وتتكلم الفرنسية عن معرفة لا بأس بها . ولـكن إقامتها الطويلة مع زوج ريفى اقترنت به عن حب جعلها تنسى كل ما ليس ذا صلة مباشرة بمطالب حياة ذلك الزوج ، فركنت اليه ، وكيفت حياتها وفق معيشته ، وفوضت اليه أمر نفسها وثروتها جميعاً ، فلم تسأله عن شىء ، ولم تفكر يوما فى إبداء الرأى حين يبسط أمامها مشروعا جديداً ينتويه !

وكانت فضـلا عن هذا من الطراز الذى يعيش دائما فى توجس مستمر ، من كارثة يخشى أن تقع ! وكان الدمع يسرع إلى مقلتيها كلما سمعت خبراً محزنا عن إنسان تعرفه أو لا تعرفه !

وقصارى القول أن هـذا الطراز آخذ فى الانقراض ، والله وحـده أعلم هل نحن بهذا أحرى أن نستبشر ، أو أن الأجدر بنا أن نأسى على انقراض هذا الطراز ؟ !



حينما استيقظ اركادى وفتح نافذة الحجرة كان أول ما وقعت عليه عيناه هو فاسيلى ايفانتش والد صديقـه وقد ارتدى معطفا قديما وتمنطق بمنديل ، وراح يعمل فى حديقة الخضروات ، ولما رفع الرجل بصره إلى ضيفه الشاب حياه بمرح وراح يحدثه عن مبـاهج العمل اليدوى ، وعن صدق رأى جان جاك روسو فى هـذا الشأن ، ثم دعاه للنزول إلى الحديقة كى يستروح أنسام الصباح الندية ريثما يتم اعداد طعام الافطار ، فقبل اركادى مسروراً ، وعندئذ سأله فاسيلى ايفانتش منذ متى عرف ولده بازاروف .

— منذ الشتاء الماضى .

— أحقا ؟ وما رأيك فيه ؟

— إن ابنك أنبغ رجل التقيت به . وأعتقد ان أمامه مستقبلا زاهراً سيذيع اسمه في الآفاق ، واسمك أيضا ياسيدي. وقد أيقنت من ذلك منذ التقيت به أول مرة ؟

— أحقا ؟

وكانت ابتسامة الزهو والفخر تملأ وجهه وتلجم لسانه ، فأنشأ اركادى يقص عليه كيف تعرف ببازاروف ، وكان يتكلم في حماسة شديدة ، حتى لقد تأثر الرجل تأثراً شديداً ، وطفق يتمخط في منديله تارة، ويسعل تارة أخرى، إلى أن أعجزه اخفاء انفعاله فألقى بنفسه على عنق اركادي وقبل كتفه قبلة حارة وهو يصيح :

— لقد أثلجت صدري !. فانى أعبد ابنى ، ولكنى لا أستطيع أن أعبر له عن عواطفى ، في حين تملك أمه ذلك بما لوضعها الخاص من امتياز . أما أنا فأحجم لأنى أعهده يكره إظهار العواطف. ولعل هذا هو مايدعو بعض الناس أن يظنوا به جمود القلب والقسوة . ولكنهم لا يعرفونه ، فقد كان دائما أخف الأبناء حملا على والديه ، ولم يطلب منا قط درهما واحداً أكثر مما يلزم لضرورياته !

— ان ابنك شاب مخلص فذ العقلية !

— نعم انه فذ . ولست أعبده فحسب ، بل انى فخور به أيضا ، ويزهينى أن يقال عنه حين يعرف قيمته العالم انه كان ابن طبيب عسكرى متقاعد لم يدخر وسعا في تربيته وتعليمه . ولكن ما رأيك ؟ هل تعتقد حقا ان فن الطب كفيل أن يجلب له الشهرة التي تتوقعها له ؟

— ليس الطب ميدانه الوحيد ، وان كنت أعتقد انه سيكون فيه من المبرزين !

— فأى الميادين إذن ميدانه ؟

— لست أدرى !. ولكن الذى لا شك فيه أنه سيبلغ أوج الشهرة على كل حال !

فطغت على الرجل الكبير حالة من حالات النشوة قطعتها عليه الخادمة العجوز مؤذنة بأن طعام الافطار فى الانتظار !

ولما انتهت تلك الوجبة التي اجتمعت فيها الأسرة وضيفها حول المائدة ، خرج الشابان إلى الحديقة وأعدا لنفسيهما فراشا من العشب الجاف ثم اضطجعا فى ظل دوحة استرواحا للنسيم فى ذلك اليوم الحار ، وأنشأ بازاروف يقص على صديقه أشتاتا من ذكريات طفولته ومدارج صباه فى هذا المكان العتيق . وسأله اركادى :

— هل كان والداك يشددان عليك الرقابة وأنت صغير ؟

— لقد رأيت بنفسك إلى أى طراز ينتمى والداى ، انهما أعجز الخلق عن الشدة !

— وهل تحبهما كثيراً ؟

— نعم !

— وهما أيضا يحبانك !

وصمت بازاروف لحظة ، ثم عقد يديه تحت رأسه وقال :

— أتدرى مايدور الآن بخاطرى ؟

— كلا !. ما هو ؟

— انى أفكر فى الحياة الرخية الرضية التي يعيشها أبواى هنا . انظر كيف يعيش أبى وهو فى سن الستين معنيا بما فى أفقه الضيق من أمور ، مهتما بمعالجة الفلاحين بأدوية عتيقة يحسبها معجزات العلم وهى مسكنات لا قيمة لها . انظر كيف تستمتع أمى بأيامها الفارغة لأنها تملؤها باهتماماتها الصغيرة التى لا تدع لها فراغا للتفكير فى تفاهتها ، أما أنا ...

— أما أنت ؟

— فراقد هنا فى ظل دوحة ، أشعر الناس بضآلة امتداد جسمى فى المكان ، وضآلة امتداد زمنى فى المدة ، وضآلة حياتى المحدودة بالقياس إلى الأبدية التي لم أعرفها ولن أدخلها . فليس فى قلبي مكان إلا للتعب والاعياء والحقد !

— الحقد ؟ ولماذا الحقد ؟

— كيف تسألني !. أنسيت الماضي القريب ؟

— لم أنسه ، ولكني قد أفهم أن تحزن ، وتشعر بالشقاء ، أما أن تغضب ..

— أراك تفهم الحب كما يفهمه سائر الشبان المحدثين .. أما أنا .. ولكن ما جدوى هذا كله ، فما فات مات .. ولا راد له .. ولن تسمع منى بعد الآن كلمة فى هذا الموضوع !

ورقد الصديقان ساكتين برهة ، إلى أن قطع بازاروف حبل الصمت قائلا :-

— ما أعجب الانسان !. إن من يتأمل حياة والدىّ الرتيبة الراكدة ، من بعيد ، لا علك أن يقول لنفسه : « ماذا يريد الانسان بعد هذا ؟. طعام وشراب وحياة صحية سليمة ؟ » . ولكن لايلبث المرء أن يضيق بهذه العزلة وينشد الصحبة ، حتى إذا وجدها لعنها !

— ان الانسان ياباز اروف ينبغى أن يرتب حياته بحيث يكون لكل لحظة من لحظاتها معنى

— طبعاً !. ولكن التوافه تتدخل فى حياة الانسان دائماً حتى تفسدها!

— إنها لاتوجد إلا حيث يعترف الانسان بوجودها !

— إنك تنطق اليوم بدرر الحكم الغوالى !

— وأراك اليوم ضيق الصدر على غير عادتك

— ربما تكون الشمس قد ضربتنى قليلا .!

— من الخير لك أن تنام قليلا !.

— أظنك على حق ، وسأفعل ، ولكن لاتنظر إلى وأنا نائم ، فالانسان يبدو على أسوأ حالاته وهو نائم فيما يقولون !

— وهل يعنيك رأى الناس ؟ أظن لا .!

— بل يعنيني ، وان كان الرجل الحق هو الذى لايعنيه رأى الناس فيه .. ذلك أن الرجل الحق اما أن يكون فوق النقد ، أو أخوف من أن ينتقده الناس لشدة كرههم له !

— عجباً !. ما أكثر حديثك عن الكراهية ، مع أنني لا أكره أحداً .!

— لأنك لاثقة لك فى نفسك ، أما أنا فما أكثر من أكرههم !

— أظن أنه يحسن أن ننام ، فذلك خير من المضى فى هذه المناقشة !

— لننم إذن . !

ولكن أحداً منهما لم يفلح فى النوم ، وظلا يحدقان فى السماء صامتين ، إلى أن عثر بهما فاسيلى ايفانتس والد بازاروف ، فراح يتحدث اليهما عن بعض ذكريات خدمته العسكرية .

وفى اليوم التالى قال بازاروف لأركادى :

— لقد سئمت المقام هنا ، ولا بد أن أرحل ، وبى رغبة ملحة فى العمل ، ولكن العمل هنا مستحيل ، ولهذا أعتقد أننى سأذهب للاقامة مؤقتاً لديكم ، لأن كل أدواتى هناك . فهناك على الأقل أستطيع أن أغلق بابى بالمفتاح ، أما هنا يا صديق ، فمع أن أبي لايفتأ يقول لى : « ان مكتبي تحت أمرك ولن يزعجك وأنت فيه أحد » إلا أنه هو نفسه لايفارقنى لحظة إلا ليعود فى اللحظة التالية بقصصه القديمة وحديثه المعاد ، وإنما أخجل أن أغلق الباب بالمفتاح كيلا يدخل .. وكذلك الحال مع أمى !

— ولكنها ستحزن كثيراً إذا رحلت ، وكذلك أبوك !

— سأعود اليهما مرة أخرى !

— متى ؟

— فى طريق إلى بطرسبورج

— إنى آسف ولاسيما لوالدتك

— ما كل هذا الثناء ؟. أتراها حشت بطنك بالفاكهة ؟

— إنك لاتعرف قدر أمك !. لقد تحدثت معها هذا الصباح نصف ساعة حديثاً عملياً ممتعاً غاية الامتاع . فهى سيدة ليست طيبة جداً فحسب ، بل هى حكيمة جداً أيضاً !

— أظن معظم حديثها كان عنى ؟

— لقد تحدثنا فى أشياء أخرى أيضاً !

— صدقت !. فربما كان فى استطاعة البعيد أن يرى ما لا يراه القريب ، ولكن هذا لا يغير من قرارى الرحيل كما قلت لك !

— ولكنك لن تجد الافضاء اليهما بالنبأ يسيراً

— لعلك على حق !. ولكن لا بد مما ليس منه بد !

وبعد العشاء قال بازاروف لأبيه كأنه تذكر شيئا عرضياً :

— أرجو أن تأمر باعداد الخيل غداً صباحا يا أبى !

— لماذا ؟. هل اعتزم المسيو كيرسانوف مغادرتنا ؟

— نعم . وإنى ذاهب معه ؟

— أتقول إنك ذاهب معه ؟

— نعم ، هذا ماقلته بالضبط ، فأرجو أن تأمر باعداد الخيل !

— طبعاً . طبعاً . كما تشاء . . ولكن . . هل هناك سبب خاص لهذا القرار المفاجىء ؟

— نعم هناك سبب ، فلا بد من ذهابى مع اركادى لزيارته ، ثم أعود ثانية !

— آه . . كما تشاء .. ولكنا كنا نحسب إقامتك ستطول معنا قليلا !

— قلت لك إننى سأعود ثانية ، وبسرعة !

— طبعاً طبعاً .. فأهم شىء هو أن يحتفظ الانسان بحريته !

وفجأة تضعضع صوت الرجل الكبير ، فأسرع بالخروج من الحجرة !

وفى اليوم التالى رحل الشابان ، ووقف الوالدان الشيخان يودعان وحيدهما بقلب صديع ونفس كسيرة !



انطلقت المركبة بالشابين وهما على حال من الصمت لا يقطعه إلا كلام متناثر كان يزيد إحساسهما بذلك السكوت الذى كأنه جدار يفصل بينهما . وكان اركادى ساخطاً على صاحبه ، غير مؤتنس بصحبته . أما بازاروف فكان ساخطاً على نفسه . فلما بلغت المركبة بهما المرحلة التى تستبدل عندها الجياد

فى محطة البريد وتنشعب الطريق ، سأل السائق أى طريق يسالك : إلى يسار أو إلى يمين ، فأجفل اركادى ، لأن الطريق التى إلى اليمين تفضى إلى المدينة ومنها إلى دار أبيه ، أما الطريق التى الى اليسار فتفضى إلى ضيعة مدام أوديتسوف . !

والتفت الى بازاروف ، فقال هذا للسائق :

— الى اليسار !

فسأله اركادى : « لماذا تقدم مرة أخرى على هذه الحماقة ؟ »

فأجاب : « إنى أعلم أنها حماقة !. ولـكن سنمر مر الكرام ! »

وهكذا انطلقت العربة فى اتجاه نيقولسكوى ، ولـكن الصمت الذى خيم على الصديقين فى المرحلة الأولى لم يتبدل !

وعند وصولهما ، وجدا أن أحـداً لم يكن يتوقع حضورهما ، وانتظرا فى حجرة الاستقبال مدة طويلة فى صمت ثقيل قبل أن تدخل عليهما مدام اوديتسوف فترحب بهما فى بشاشتها المألوفة ، وإن لم تستطع مداراة دهشتها لعودتهما بهذه السرعة ، ولـكنها لم تـكن دهشة السرور على كل حال . فأسرعا يؤكدان لها أن زيارتهما ليست إلا مروراً عابراً ، وليست لديهما نية الاقامة ، فبعد أربع ساعات على الأكثر سيستأنفان الرحلة الى المدينة ، فلم تعلق على ذلك إلا بتحميل اركادى سلامها إلى والده ، ثم أرسلت فى طلب خالتها . أما كاتيا فكانت متوعكة فى ذلك اليوم فلم تبرح حجرتها !

وكان عبء معظم الحديث واقعاً على انا سيرجييفنا التى كانت تتكلم دون أن يفتر ثغرها عن ابتسامة واحدة ، اللهم إلا ساعة الرحيل ، إذ قالت كالمعتذرة :

— أنا اليوم على غير ما يرام !. ولـكن لا عليكما من ذلك ، وأحب أن تعاودا الـكرة قريباً . وهذه دعوة موجهة اليكما معاً !

فشكراها بانحناء صامت ، ثم استقلا العربة متجهين صوب مارينو فبلغاها فى المساء التالى ، وقد خيم الصمت عليهما معظم الوقت . وكان بازاروف يديم

التحديق فى الأفق وفى عينيه نظرة جامدة !

وقد وجدا الجميع فى مارينو فرحين بعودتهما أعظم الفرح ، حتى بول بتروفتش ، وقد أمر نيقولاى بتروفتش بفتح جملة زجاجات من الشراب المعتق احتفاء بمقدم الشابين . والواقع أن نيقولاى كان قبل حضورهما ضيق الصدر مهموماً لكثرة متاعبه فى إدارة تلك المزرعة التى تزداد أمورها ارتباكا يوماً بعد يوم . وكان أخوه بول يرفض الاهتمام بهذه الأمور ، ويكتفى كلما تأزمت المشاكل بفتل شاربه وعقد حاجبيه وهز كتفيه !

وطبيعى أن بازاروف كان ينأى بنفسه أثناء إقامته عن هذه المشاكل بين الفلاحين ما كان منها خاصاً بنظام المزارعة أو الايجار على السواء . فقد كان ذهنه مشغولا بأمور أخرى ، أهمها على الاطلاق صاحبة ضيعة نيقولسكوى ، وكان يعجزه أن يصرف خواطره الى اتجاه آخر ، فيحاول تلهية نفسه بالسير على قدميه مسافات طويلة حتى ينال منه الإعياء مناله . بيد أن ذلك لم يفده شيئاً !

ولم يكن حال اركادى خيراً من حاله ، فهو مهموم مشغول القلب بأنا سيرجيفنا بحيث لم يستطع معاونة أبيه فى حل شىء من مشاكله . وفى ذات يوم علم من والده عرضاً أثناء الحديث أنه عثر أخيراً بخطابات هامة كانت والدة اركادى قد وجهتها إلى والدة مدام اودينتسوف ، فتلقف تلك الخطابات وراح يقول لنفسه : « لقد قالت لنا وهى تودعنا إنها توجه الدعوة الينا معاً . لأذهبن إذن ! »

ولكن ذكرى الزيارة الأخيرة وما سادها من الثقل والوجوم كان لا يلبث أن يصده ويقعد به خشية أن تلقاه أنا كذلك اللقاء الفاتر . ومع هذا فقد تغلبت دفعة الشباب آخر الامر على ما لديه من تردد ، وآثر أن يجرب حظه فى الفوز بقلب فاتنته .

وبعد عشرة أيام ، انتحل علة للذهاب إلى المدينة ، هى دراسة أعمال مدارس الأحد ، ومن هناك اتجه إلى نيقولسكوى . وكانت حالته العامة وهو

يستحث الخيل الى هناك كحال ضابط يافع فى طريقه الى أول مبارزة يشتبك فيها ، فهو نافد الصبر متهلل الوجه واجف القلب فى آن واحد !

وما وقفت العربة أمام المدخل حتى عاوده تردده وقال فى نفسه :

— أليس من الخير أن أعود من حيث أتيت ؟

ولـكن صوت العربة كان قد وصل الى أذنين من تحتهما رداء أرجوانى فى خميلة من خمائل الحديقة . نعم ، هـذا هو الوجه الناضر يطل من بين الأغصان ، ومن فوقه مظله من الحرير .. إنها كاتيا !

وقد عرفها لأول وهلة ، كما عرفته هى أيضاً ، فقفز من العربة واقترب منها ، فصاحت بصوت متهلل وقد صبغت الحمرة وجهها :

— أهذا أنت ؟. هيا نبحث عن أختى ، فهى فى الحديقة أيضاً ، ولا شك أنها سوف تسر كثيراً برؤيتك !

ثم قادته الى حيث كانت أختها . وقد شعر بسرور عظيم لملاقاة كاتيا على هذا النحو فما كان سروره بأخت له أعظم من سروره بها . وإن ذلك الاستقبال الحميم لأحب إليه وأسر لنفسه من استقبال كبير الخدم وما يصحبه من الرسميات الجافة !

وقد لمح أنا سيرجييفنا عنـد منعطف فى المشى . وكان ظهرها إليه ، ولـكن وقع خطواته نبهها ، فالتفتت ناحيته ، وإذا الارتباك وقد أخذ بخناق اركادى . غير أن ذلك الاحساس لم يلبث أن تبدد ، وعاودته شجاعته حين بدأته الحديث باهجتها الرقيقة وابتسامتها المشرقة :

— كيف أنت ؟ وأين وجدته يا كاتيا ؟

— لقد أحضرت إليك شيئاً أظنك ستسرين به كثيراً . !

— يكفى أنك أحضرت نفسك ، فذلك خير ما تقدم به علىّ !

مبارزة وامية

ما كاد اركادى يمضى فى رحلته إلى المدينة، حتى استغرق بازاروف فى تجاربه ودراساته ، فلم يعد وقته يتسع بعد ذلك للمجادلة مع بول بتروفتش الذى اعتصم بمسلك الأرستقراطيين فى الكبرياء والتجاهل ، وصار لايتحدث إلا بالكلمات المفردة ، ولا يشتبك مع بازاروف فى المناقشة إلا فيما ندر حول حقوق الفلاحين. ثم لم يلبث ان كف عن هذه المناقشة أيضاً ، قائلا لبازاروف فى أدب فاتر :

— من الواضح اننا لن يفهم أحدنا الآخر . أو على الأقل ليس لى شرف فهمك !

فأجابه بازاروف قائلا : « صدقت !. ان الانسان قد يعرف طبيعة الأثير، وقد يدرك ما يجرى فى الشمس. أما مايحدث تحت أنفه لانسان مثله فهو يعجز عن فهمه ، إذا كان يختلف عما يحدث له شخصياً ! »

ولكن ذلك لم يمنع بول بتروفتش فى بعض الأحيان من التماس الاذن فى حضور بعض التجارب التى كان يجريها بازاروف . وذهب فى ذلك السبيل إلى حد النظر بنفسه فى الميكريسكوب . أما حضور نيقولاى إلى حجرة بازاروف فكان أكثر حدوثاً . ولولا مشاغله فى إدارة المزرعة وحل مشكلاتها التى لا تنتهى لكان أشبه بالمقيم بها . على انه كان لا يزعج بازاروف إطلاقاً ، بل يكتفى بالمشاهدة الصامتة قابعاً فى ركن من أركان الحجرة ، ولا ينطق بسؤال إلا عند الضرورة القصوى. وكان على مائدة الطعام يتحرى توجيه الحديث إلى موضوعات الجيولوجيا والكيمياء ، لعلمه ان الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية من شأنها أن تثير الخلافات بين الشاب وبين شقيقه بول. والواقع انه كان محقاً فى اعتقاده ان العداوة التى يكنها بول لبازاروف لم تخمد أوارها ، وقد حدث

ان انتشرت فى تلك المدة موجة من موجات الـكوليرا ذهب ضحيتها اثنان من فلاحى ضيعة مارينو نفسها . وفى ذات ليلة شعر بول بتروفتش باغماء ، ومع ذلك رفض الاستعانة ببازاروف . وحينما قابله هذا فى اليوم التالى وسأله لماذا لم يبعث فى طلبه أجابه بول بتروفتش :

— ألست قد قلت لى بنفسك انك لا تؤمن بالطب ؟

وهكذا توالت الأيام ، وبازاروف مكب على عمله لا يختلط بأحـد ، ولا يستريح إلى أحد ماعدا شخصاً واحداً هو تنيشكا التى كان يقابلها فى الصبـاح الباكر وهى تتمشى فى الحديقة ، ولـكنه لم يدخل حجرتها مطلقاً ، وهى أيضا لم تطرق بابه إلا مرة واحدة جاءت تطلب معونته فى حمام ميتيا . فهى لم تكن تثق فى بازاروف فحسب ، بل كانت تسمح لنفسها فى محضره بمزيد من الحرية عمـا ترخص به لنفسها فى حضرة نيقولاى بتروفتش نفسه . والسبب فى ذلك يصعب تحديده . وربما كان مرجعه إلى أنها لا تحس أنه أعلى منها طبقة . فهذا الشاب العدمى ليس فى نظرها سوى طبيب حاذق !

على أنها وإن تخلت عن التكلف مع بازاروف ، كانت تعمد بالفطرة إلى الاعراض عنه أمام نيقولاى بتروفتش . وليس ذلك عن قصد أو تدبير بل لعله من باب اللياقة !

أما بول بتروفتش فظلت تشعر نحوه بالرهبة والخشية ، لأنه يرمقها دائما بنظرة ثاقبة ثابتة ، فتشعر ببرودة تسرى فى عمودها الفقرى . فى حين انها تستريح إلى بازاروف كما يستريح بازاروف اليهـا ، فيفارقه وهو يتحدث اليها وجومه وتحديه ، وينطلق على سجيته وكأنه عاد إلى عهد الطفولة !

وكان جمـال تنيشكا يزداد بمرور الأيام . فقد كانت فى ذلك الوقت تمر بالفترة التى تصل فيها المرأة إلى أوج تفتحها ونضرتها . وكانت ملابس الصيف الفهفافة تزيدها سحراً وفتنة ، وحرارة الصيف تكسو خديها بحمرة خمرية !

وفى ذات صباح ، وكانت الساعة قبيل السابعة ، كان بازاروف عائداً من نزهة على قدميه تعود أن يمشيها فى الصباح الباكر من كل يوم ، فالتقى بتنيشكا وسـط حقل من الأقحوان كان قد انتهى موسم ازدهاره ولـكنه ظل يانع

الخضرة . وكانت تلف رأسها كعادتها بشال أبيض ، وقد جلست فوق مقعد خشبي وإلى جانبها حزمة من الورد الأحمر والأبيض مخضلة بالندى

وأقرأها بازاروف تحية الصباح ، فأجابته مرحبة به ، ثم سألها :

ـــ ما كل هذا الورد ؟

ـــ انى أعده لتزيين مائدة الافطار ، فان نيقولاى مغرم به !

ـــ ولكن ساعة الافطار لم تحن بعد !

ـــ نعم ، ولكنى أفضل جمع الورد قبل طلوع الشمس ، لأن الحرارة تضيق أنفاسى وتكاد تصيبنى بالدوار والاغماء !

ـــ هذا وهم ، ولكن هات معصمك أجس نبضك !

ووجد نبضها منتظما كل الانتظام ، فترك يدها قائلا :

ـــ ستعيشين حتى تبلغى المائة !

ـــ وقانى الله هذا البلاء !

ـــ ولماذا ؟.. انك ولا شك تتمنين طول العمر !

ـــ نعم ، ولكن لا إلى مائة سنة ، فقد عاشت جدتى حتى سن الخامسة والثمانين ، ولكنها تعذبت كثيراً جداً ، فلم يكن السعال يفارقها فى السنوات الأخيرة ، كما أنها عميت وتقوس ظهرها وأصابها الصمم وأصبحت عبئا ثقيلا . فأى فائدة لحياة كهذه ؟

ـــ أتفضلين إذن سن الشباب ؟

ـــ طبعا !. فما دام الانسان شابا فى استطاعته أن يفعل ما يشاء مستقلا عن الناس مستغنيا عنهم . أليس كذلك ؟

ـــ لا أدرى !. فليس يهمنى أن أكون شابا أو شيخا . وأى معنى للشباب عندى وأنا رجل متوحد لا بيت لى ، ولا أحد يشفق على وحدتى !

فرمقته بنظرة ، ثم قالت بعد فترة صمت :

ـــ ما هذا الكتاب الذى بيدك ؟

ـــ كتاب علمى !

ـــ ما أشد انهماكك فى الدرس ، أما تسأم منه ؟

— كلا !. خذى فاقرئى فيه قليلا !

— لن أفهم فيه حرفا .!

— لست أريد منك أن تفهمى ، بل كل مرادى أن أشاهدك وأسمعك وأنت تقرأين

فراحت تقرأ بصوت عال كلاما فى الكيمياء لا معنى له فى نظرها ، ثم انفجرت ضاحكة ، فقال لها : «كم أحب ان أراك وأنت تضحكين !»

فنظرت اليه كالمعاتبة وقالت : « لا تزد ..! » . ولكنه مضى فقال :

— أنا أيضا أحب أن أسمعك تتكلمين ، فان صوتك عذب رائق !

فأشاحت بوجهها وانصرفت إلى تنسيق الزهور برهة ثم سألته :

— لماذا تحب ان تسمعنى أتكلم ؟. لا شك انك تكلمت قبلى مع من هم خير منى ؟!

— ومع هذا فانى أؤكد لك ان أرقى النساء وأذكاهن لا تساوى منك قلامة ظفر

— لا تقل هذا .!

— اسمعى . ألست طبيبك ؟

— بلى . وإنى أشكرك جداً على السفوف الذى وصفته لميتيا ، فقد نام على أثره نوماً هادئاً جداً . صدقنى لست أدرى كيف أشكرك !

— ولكن الطبيب بحاجة الى أجر لا الى شكر !

فرفعت عينيها إليه متعجبة لا تدرى هل هو جاد أو مازح ، ثم قالت :

— إنى طبعاً أتلهف على دفع أتعابك ، وسأتحدث مع نيقولاى بتروفتش فى ذلك !

— ماذا ؟. أتظنين أنى أريد مالا ؟

— ماذا إذن ؟

— إذن لا مناص من التصريح . إنى أريد ، أريد . . . أريد إحدى هذه الورود

فانفجرت ضاحكة وراحت تصفق بيديها ، وكانت فى ضحكتها رنة ارتياح ، ثم قالت :

— عفوك !. ومن أى لون تريدها ؟

— حمراء صغيرة !

— إذن خذ هذه !

ثم تراجعت وجمدت عيناها وهى تحدق فى مدخل الحديقة ، فقال بازاروف :

— هل سمعت وقع خطوات نيقولاى قادماً ؟

— كلا !. لقد ذهب الجميع الى الحقول ، ولست أخشى أحداً سوى بول بتروفتش ، وقد توهمت قدوم أحد من هذا الاتجاه !

— ولماذا تخافين بول بتروفتش ؟

— لأنه يفزعنى ! . ولأننى حين أخاطبه لا أظفر بجواب ، بل يحدق فى وجهى ولا ينطق ، وأنت كذلك لا تحبه كما أعتقد !

— كلا ! ولكن هلا شممت هذه الوردة التى أعطيتنى إياها ؟

وهمت بأن تشم الوردة ، فانحسر الشال عن رأسها الى كتفيها فكشف عن شعر غزير ناعم لامع فاحم اللون ، فقال بازاروف :

— انتظرى . سأشمها أنا أيضاً !

ثم انحنى وقبلها فوق شفتيها المنفرجتين ، فتراجعت وهى تدفعه فى صدره ، ولكن دفعاً هيناً جداً بحيث استطاع معاودة الكرة ، وبقبلة أطول !

وفجأة انبثقت من بين أعواد الأقحوان سعلة جافة ، وما تراجعت تنيشكا الى الطرف الآخر من المقعد حتى كان بول بتروفتش قد ظهر ، فرشقهما بنظرة ساخرة ، ثم قال بصوته المترفع :

— أأنتما هنا ؟؟..

ثم دار على عقبيه وانصرف . فحملت تنيشكا سلة الورد ، واندفعت نحو البيت وهى تهمس الى بازاروف مرتعدة :

— الحق يا الجينى فاسيلتش انك أخطأت !

وكانت نبرة اللوم صادقة غير مموهة ، وانتقل ذهن بازاروف الى

منظر آخر حدث منذ أيام قليلة فثار ضميره واحتقر نفسه ، وانصرف مطرقاً إلى حجرته .!

أما بول بتروفتش فترك الحديقة وراح يتمشى بخطوات بطيئة فى الغابة ، وظل هناك مدة طويلة . فلما عاد كى يتناول الافطار كانت سحنته تنبىء عن وجوم شديد ، حتى ان نيقولاى بتروفتش حسبه مريضاً ، فلما سأله فى ذلك أجابه بهدوء :

— إننى كما تعلم أعانى من اضطراب فى الصفراء !



وبعد ساعتين كان بول بتروفتش يطرق باب بازاروف ، وهناك جلس قرب النافذة واضعاً راحته فوق عصا لطيفة لها رأس من العاج حملها معه هذه المرة على غير عادته لأنه قلما يحمل عصا ، ثم قال :

— أشعر بأننى مدين لك بالاعتذار لتعكيرى صفو أبحاثك . ولكن الظروف هى التى أرغمتنى على أن ألتمس خمس دقائق من وقتك !

— إن وقتى كله تحت تصرفك !

— كلا ! فنى خمس دقائق الكفاية ، فقد جئت أسألك سؤالا يسيرا

— وماذا عسى أن يكون هذا السؤال ؟

— اسمع . عندما نزلت أول مرة بيت أخى ، وكنت لا أحرم نفسى من متعة الكلام معك ، سمعتك تعلق تعليقات شتى على مسائل كثيرة . ولكن إذا لم تخنى الذاكرة لم تتحدث مطلقاً حديثاً أستطيع أن أستشف منه رأيك فى موضوع المبارزة الفردية . فهل لك أن تجشم نفسك عناء شرح وجهة نظرك فى هذا الأمر ؟

وكان بازاروف قد استقبل بول بتروفتش واقفا . فلما سمع هذا الكلام جلس فوق حافة المائدة وعقد ذراعيه فوق صدره ثم قال :

— ان رأيى كما يأتى : ان المبارزة من الوجهة النظرية أمر سخيف كل السخافة . أما من الوجهة العملية فالأمر مختلف تمام الاختلاف !

— هل أفهم من ذلك انك مستعد عمليا للتغاضى عن رأيك النظرى ،

بحيث تكون على استعداد لرد الاهانة وطلب المبارزة إذا أهانك أحد ؟

— لقد أحسنت الفهم !

— أشكرك . فقد أخرجني رأيك هذا من حيرة شديدة . فقد قررت أن أبارزك !

فرفع بازاروف حاجبيه دهشة ثم قال :

— تبارزني أنا ؟

— نعم أبارزك أنت !

— ولأى سبب ؟

— لسبب يمكن ذكره ، ولكنني أفضل السكوت عنه . ويكفيك أن تعلم ان وجودك يثيرني ، وانني أكره شخصك وأحتقره ، وانني ...

— كفى !. فلا لزوم لمزيد من الايضاح . فقد آثرت أن تشحذ لسانك ، ولذلك فانه يسرني ان أجيب رغبتك !

— وأنا أشكرك ، لأنك سهلت مهمتي ولم تلجئني إلى استعمال الوسائل العنيفة !

— تعني طبعا استعمال العصا ؟.. أظن انه لا لزوم لهذا ، ففيما وجهت لي من إهانات ما فوق الكفاية !

— حسنا .! والآن نتكلم في شروط المبارزة . فهل لديك مانع قبل كل شيء في كتمان الأسباب الحقيقية للمبارزة عن الجميع ، مع اختلاق سبب مزعوم؟

— لا مانع عندي في ذلك !

— وأظن انه لا لزوم أيضا لمساعدين !

— لا لزوم !

— واني أقترح أن تتم المبارزة غداً صباحا في الساعة السادسة ، وراء الأجمة ، وان يكون السلاح هو المسدس ، وان تكون المسافة عشر خطوات. أو ثمان إذا شئت !

— سيان !

— وان يطلق كل منا رصاصتين . على أن يضع كل واحد منـا فى جيبه سلفا خطابا يقول فيه انه المسئول وحده عما حدث له من وفاة !

— هذا شرط غريب !. وأظنك تسقطته من رواية فرنسية ، فانهخيالى!

— ربما !. ولـكنه فيما أرى شرط واجب !

— لا بأس !. ولـكن عندى اقتراح . فاذا لم يكن لنا مساعدان ، فليس ما يمنع أن يكون لنا شاهد مشترك !

— وهل لى أن أسأل من هو ؟

— بطرس !

— بطرس ؟ ولماذا بطرس ؟

— لأن هـذا الخادم واسع الثقافة ، محيط بروح العصر فهو يصلح لهذا الدور !

— أخالك تمزح أيها السيد !

— لست مازحا ، وأحسبك إن أنت أمعنت النظر فى اقتراحى سوف تجده وجيها !

— بل أحسبك تمزح . ولـكن بما أنك قد أحسنت استقبالى وسهلت مهمتى ، فلست أرى معنى لتكديرك أو الاثقال عليك وعلى وقتك . وأظن أننا قد اتفقنا على كل شىء ؟ ولهذه الناسبة هل لديك مسدسات ؟

— وكيف يمكن أن يكون عندى مسدسات وأنا لست رجل حرب ؟

— لعلك إذن تسمح لى أن أقدم لك مسدسين من مسدساتى . وثق بأنى لم أستعملهما منذ خمس سنوات على الأقل !

— هذه معلومات مطمئنة !

— وأخيراً أقدم اليك الشكر وأتركك كى تستأنف أبحاثك !

— وأنا أقول لك إلى اللقاء فى موعدنا السار !

ثم صحب زائره حتى الباب . فلمـا انصرف بول بتروفتش وقف بازاروف برهة غارقا فى التفكير ، ثم صاح يخاطب نفسه :

— ما أروع هذاوما أسخفه!.هذه والله مهزلة !. ولـكن لم يكن بوسعى

أن أفعل غير ما فعلت . فلو رفضت مبارزته لضربني بعصاه ، ولاضطررت عندئذ أن أخنقه حتى الموت !

ثم عاد إلى المجهر ، غير أنه لم يجد من نفسه استعداداً للملاحظة العلمية ، فقال لنفسه :

— أحسبه قد رآنا هذا الصباح . ولكن ما أظنه قد جاء يتحداني للمبارزة بالنيابة عن أخيه . فماذا في قبلة ؟ كلا . ! إن وراء هذه المبارزة سبباً آخر خفياً . ومن يدري ؟ لعله يهواها . ومهما يكن من شيء فالموقف غريب غاية الغرابة . فاما أن ينتهي الأمر بصرعي أو بصرعه ، ويعقب هذا الفرض الأخير جلائي عن المكان .. ثم هناك صديق اركادي ووالده !..

وعلى هذه الوتيرة انقضى ذلك اليوم بطيئاً متثاقلا . ولم تغادر تنيشكا حجرتها بل لزمتها كما يلازم الفأر جحره عند الروع . أما نيقولاى بتروفتش فكان مهموما ، لأنه كان قد بلغه في ذلك اليوم خبر ظهور آفة زراعية في محصول القمح . وأما بول بتروفتش فكان متذرعا بدماثة مثلجة مثيرة للأعصاب !

وشرع بازاروف يكتب إلى والده خطابا ، ولكنه لم يفلح ، فمزق ما كتب قائلا لنفسه :

— إذا قتلت فانهما سيعلمان نبأ مقتلي سريعاً . ولكني لن أموت !

وكلف بطرس أن يوقظه عند الفجر لأمر هام جداً ، ثم أوى إلى فراشه في ساعة متأخرة ، ولكن النوم لم يسرع اليه ، وحينما غفا رأى أحلاما غريبة تبدت فيها مدام اودينتسوف متخذة شخصية أمه ، ومن ورائها قطة سوداء متخذة شخصية تنيشكا ، أما بول بتروفتش فظهر له في صورة غابة كان عليه أن يقاتل أشجارها !

وأخيراً أيقظه بطرس في تمام الساعة الرابعة ، فارتدى ملابسه على عجل ، ثم غادر البيت معه . وكان صباحا جميلا رطيب الأنفاس تتسلل أنواره الوليدة من وراء غمام متناثر . ولم تلبث الأضواء أن ملأت صفحة الأفق ، وتجاوبت الأرجاء بأصوات العصافير

وقد اتجه بازاروف مباشرة إلى الأجمة ، حيث جلس في ظل شجرة ، ثم



« وعاد بطرس – وكان قد هرب عند انطلاق الرصاص مذعوراً – فأخذ يساعد الجريح »

أخذ يوضح لبطرس طبيعة المهمة الموكولة إليه ، بعد أن أطراه وتملق غروره الثقافي ، إلى أن رضي الرجل وقد اطمأن إلى أنه لامسئولية عليه في شيء !

ولم يطل انتظارهما حتي أقبـل بول بتروفتش على صهوة جواده ، وبدأت الاجراءات التمهيدية للمبارزة ، فتولى بول بتروفتش بموافقة بازاروف حشو المسدسات ، أما بازاروف فتولى قياس المسافات !

وما وافت الساعة السادسة حتى كان كل منهما في المكان المرسوم لاطلاق النار . ثم مرق شيء من جانب أذن بازاروف ، وتلا ذلك مباشرة صوت قذيفة. وعنـدئذ ضغط بازاروف الزناد بغير تصويب ، فاذا بول بتروفتش يضع يديه على فخذه ، ثم ظهرت بقع الدم فوق بنطلونه الأبيض . وعندئذ ألقى بازاروف بالمسدس من يده وأسرع إلى خصمه يسأله :

— هل جرحت ؟

— أرجو أن تعيدني إلى مكاني . فيجب أن تطلق الطلقـة الثانية قبل فوات الوقت !

— هـذه مسألة يمكن ارجاؤها ، فإنني لست الآن مبارزاً بل طبيباً ، يابطرس .. أين ذهب هذا الشيطان ؟

— هذه بلاهة ! فلنستأنف !

وفيما كان يحاول فتل شاربه سـقطت ذراعه إلى جانبه وانطبق جفناه ، فأضجعه بازاروف على الأرض ، ثم أخذ يضمد جرحه بمنديله ، وقد سره أن يجد العظم سليما والجرح لحماً سطحياً تقريباً لا يحتاج إلى علاج يزيد على ثلاثة أسابيع يعود بعدها إلى حالته الطبيعية تماما . وعندئذ كان بطرس الذى هرب عند انطلاق الرصاص مذعوراً قد عاد متسللا فساعد بازاروف على إجـلاس الجريح ، ثم أسرع يحضر المحفة .

وقال بازاروف أثناء الانتظار :

— لالزوم لإثارة الموضوع القديم ، فإني أعتزم الرحيل فوراً ، بمجرد انتهائي من تضميد جرحك كما يجب . وما رأيك أن نزعم للجميع أننا تبارزنا لخلاف على الرأى السياسى ؟

— رأى وجيه !. ولـكن انظر ماذا فعل هذا الأحمق بطرس. لقد أحضر أخي في العربة !

وقفز نيقولاى بتروفتش نازلا من العربة وهو يصيح :

— ماذا حدث يا بازاروف ؟

فأجاب بول بتروفتش نيابة عن بازاروف :

— لم يحدث شيء ، وأراك قد أزعجت نفسك بغير موجب ، فكل ما هناك أنه حدث خلاف بسيط بيني وبين المسيو بازاروف ، فأدى الخلاف إلى نتيجة تافهة !

— ولـكن كيف اختلفتما ومتى ؟

— لقد تكلم المسيو بازاروف باستهانة عن السير روبرت بيل السياسى الانجليزى ، فتهورت وتطور الأمر إلى مبارزة . وأشهد أن المسيو بازاروف تصرف تصرفاً رائعاً !

— ولـكن انظر إلى الدم ؟

— على رسالك !. أتظن ما في عروقي ماء أيها الرجل ؟. إنه دم طبعاً ! ثم إن نزف الدماء سيفيدنى صحياً . أليس كذلك يا دكتور ؟. ساعدانى على ركوب المحفة ، وانفضا عنكما هذا الوجوم ، ففي غد سأكون على ما يرام !

وفي الطريق أبدى نيقولاى بتروفتش لبازاروف رغبتـه في أن يتولى الاشراف على صحة أخيه ريثما يحضر طبيب من المدينة ، فأومأ بازاروف برأسه علامة القبول !

وبعد ساعة كان بول بتروفتش راقداً في فراشه وقد ضمد جرحه تضميداً فنياً دقيقاً . أما البيت كله فساده الوجوم والهلع . فتينشكا مروعة ، ونيقولاى عاجز عن فعل شيء عدا فرك يديه بعصبية شديدة ، أما الرجل المريض فكان هو الوحيد الذى يمزح ويسخر ويتبادل النكات مع بازاروف . وقد عنى بارتداء قميص فاخر وسترة أنيقة ، ووضع فوق رأسـه طربوشاً تركياً . ومنع اغلاق النوافذ ، واحتج أشد الاحتجاج على حرمانه من الطعام !

ولما اقترب الليل بدأ الصداع ينتابه ، وظهرت عليه أعراض الحمى ، فلما

وصل الطبيب من المدينة أقر العلاج الذى اتبعه بازاروف ، وأوصى باستعمال مكمدات لتلطيف درجة الحرارة . وكفت عشر روبلات ذهبية لحمل الطبيب على تصديق مازعمه له نيقولاى من أن الجرح ناجم عن حادث أثناء الصيد ، فوضع النقود في جيبه وانصرف !

ولم يأو أحد إلى فراشه تلك الليلة . بل إن أحداً لم يخلع ملابسه . وكان نيقولاى يتسلل إلى مخدع أخيه بين الفينة والفينة على أطراف أصابعه ثم يخرج دون أن يقول شيئاً !

وحدث تلك الليلة أن طلب پول بتروفتش من شقيقه عندما فتح عينيه ذات مرة فوجده أمامه أن يبعث اليه شيئا يشربه ، فأرسل اليه كأساً من عصير الليمون مع تنيشكا ، فجعل پول بتروفتش يحدق فيها تحديقاً طويلا ثم تجرع الكأس حتى الثمالة !

وقرب انبلاج الصبح زادت الحمى ، وبدأت مرحلة من الهذيان الخفيف وفتح المريض عينيه ، فلما أبصر أخاه منحنياً فوقه قال له همساً :

— ألا تعتقد يانيقولاى ان تنيشكا تشبه نللى بعض الشيء ؟

— ومن هى نللى يابول ؟

— الأميرة « ر » طبعاً . فان النصف الأعلى من وجه تنيشكا يشبه النصف الأعلى من وجهها تماماً ، انهما من معدن واحد !

ولم يجب نيقولاى ، بل تنهد وانصرف !

وفى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى ، دخل بازاروف حجرة نيقولاى بعد ان أعد حقائبه جميعاً ، فنهض نيقولاى لملاقاته قائلا :

— أراك جئت لتحية الوداع ؟

— نعم !

— انى أقدر شعورك طبعاً . وواثق بأن اللوم كله واقع على أخى . وقد أفهمنى انه لم يجعل لك مناصاً من مبارزته . ونحمد الله ان الأمور انتهت عند هذا الحد ، ونسأله السلامة . وقد عملنا كل ما فى وسعنا كى لاينتشر الخبر !

— طبعاً . ! وسأترك عنوانى للاتصال بى عند الحاجة !

— انى آسف أن تختزل اقامتك فى بيتي هـذا الاختزال ، وآسف لأن اركادى ...

— انى أتوقع أن أراه قريباً ، وإذا لم أوفق فأرجو تبليغه سلامى وأسفى!

وعند ماعلم بول بتروفتش أن بازاروف على أهبة الرحيل أعرب عن رغبته فى رؤيته وتحيته، فقابله بازاروف مقابلة ثلجية لاعتقاده أن بول يريد أن يتخذه مطية لاظهار الـكرم . أما تنيشكا فانه لم يودعها بكلمة واحدة ، مكتفياً بنظرة خاطفة تبادلها وإياها حين استرقت النظر من بعض النوافذ ، وقد بدا له وجهها مثقلا بالهموم ، فقال فى نفسه :

— عن قريب ستزل قدمها ، أو ... تفر .!

وركب العربة بعد ذلك راحلا !

وراح بول بتروفتش يتماثل إلى الشفاء بسرعة. وكان نيقولاى يقضي الوقت كله فى القراءة له بصوت مرتفع ، وكانت تنيشكا تخدمه وتسقيه الحساء وعصير الليمون والشاى والبيض المخفوق . ولـكنها مع هذا لم تكن تدخل حجرته مرة بغير شعور عصبي غامض !

والحقيقة أن مسلك بول بتروفتش المرح كان موضع دهشة كل من فى البيت. فرئيس الخدم على الخصوص كان أشدهم انكاراً لنزول بول بتروفتش إلى مستوى مبارزة هذا المخلوق السوقى بازاروف . وكانت تنيشكا تشعر بشيء من وخز الضمير لأنها كانت تعلم انها السبب الحقيقي لذلك الذى حدث . وكانت نظرات بول بتروفتش اليها تقلقها كثيراً . فكانت تشعر بها حتى وهى مولية اليه ظهرها ، لهذا كانت تحس الفزع وتقاوم ذلك الشعور . وقد أورثها ذلك الاضطراب العصبي الأرق والنحول ، وزادها النحول والشحوب جمالا على جمال !

وأخيراً شعر بول بتروفتش بتحسن كبير مكنه من مغادرة الفراش كى يجلس على الأريكة . وانصرف أخوه لشئون ضيعته. وحملت اليه تنيشكا وهو فى عزلته قدحاً من الشاى . فلما وضعته فوق المنضدة الصغيرة همت بالخروج ، وعندئذ رجا بول بتروفتش أن تبقى قائلا لها :

— لماذا تسرعين بالخروج ؟ هل لديك عمل عاجل ؟

— كلا !. بل نعم !. أعنى انى يجب أن أذهب لأصب الشاى للخدم !
— فى استطاعة دنياشا أن تقوم بذلك عنك ، ولا شك انك لا ترفضين البقاء مع رجل مريض يريد أن يفضى اليك بشىء هام جداً ؟

وجلست على حرف الكرسى ولم تتكلم ، فقال وهو يفتل شاربيه بأناة :
— اسمعى . لى مدة طويلة وأنا أريد أن أسألك لماذا تخافين منى ؟
— أخاف منك ؟
— نعم ، لأنك لاتنظرين أبداً إلى وجهى . حتى انه قد يسبق إلى الظن أنك متأثمة !

فاحمر وجهها ونظرت فى عينى بول بتروفتش ، فسألها :
— هل ضميرك نقى ؟
— نعم . ولم لا ؟
— لست أدرى !. ولا أستطيع على كل حال أن أتذكر لك ذنباً معيناً ضد شخص ما . فضدى لم تفعلى شيئاً . ضد من إذن ؟. أضد أخى ؟. ولكنك تحبينه.. أليس كذلك ؟
— نعم أحبه !
— من كل قلبك ؟
— من كل قلبي !
— حقاً وصدقا ؟. انظرى فى عينى ، واعلمى ان الكذب خطيئة مميتة !
— ولكننى لست كاذبة يابول بتروفتش . فلو لم أكن أحب نيقولاى بتروفتش كثيراً لما رغبت فى الحياة !
— وهل ترفضين استبدال أى أحد به ؟
— استبدال من ؟
— لست أدرى . انه ليس طبعا السيد الذى رحل من هنا أخيراً ؟

فنهضت واقفة وصاحت به :
— لماذا تعذبنى يابول بتروفتش ؟. ماذا فعلت حتى تكلمنى على هذا النحو ؟
— لأنى يافنيشكا رأيتكما فى الحديقة !

فاحمر وجهها حتى أطراف أذنيها ثم قالت :

— وما ذنبي أنا ؟

— أتقسمين انه لاذنب لك على الاطلاق ،وانك كنت مغلوبة على أمرك؟

— انى أحب نيقولاى بتروفتش ، ولن أحب رجلا سواه . وأما ما رأيته فأقسم بيوم القيامة انى بريئة من ذنبه ، وانى أفضل الموت على خيانة ولى نعمتى نقولاى بتروفتش !

وشعرت بيدى بول بتروفتش تضغطان على يدها ، فرفعت وجهها اليه فاذا منظر عجب !. إذا دمعة كبيرة تنحدر على خده ، ثم رفع يدها إلى فمه وأجهش بالبكاء !

وسمعا وقع أقدام نيقولاى ، فتباعدا ، وتمالك نفسه،ثم إذا نيقولاى يدخل حاملا بين ذراعيه ابنه ميتيا والفرح به يقطر من وجهه ، فأسرعت تنيشكا نحو الأب والابن وطوقتهما معا بذراعيها ، وألقت برأسها فوق صدر نيقولاى الذى وقف مبهوتا لهذا المسلك الغريب من تنيشكا التى يعهدها خجولا محتشمة ، ولا سيما بمحضر من شخص ثالث ، فصاح :

— ماذا جرى ؟

ثم أعطى ميتيا لأمه وأسرع نحو أخيه الذى كان شديد الشحوب ، ولكن بول طمأنه على نفسه ، وداعب الطفل قليلا ، ثم سلمه لأمه التى فرحت به ، وعندئذ قال بول :

— يا أخى .. أريد منك أن تعدنى الآن بتنفيذ الوصية التى سأوصيك بها الساعة

— مر يا أخى !

— إنها نصيحة يتوقف على اتباعها سعادتك بقية حياتك . وهى نتيجة تفكير عميق من جانبي . فأنا بالاختصار أريد منك أن تضع حداً للحياةالفاضحة التى تحياها ، وأن تقوم بالواجب الذى يفرضه عليك الشرف كما ينبغي لمثلك !

— ماذا تعنى يا أخى ؟

— يجب أن تتزوج تنيشكا . فهى تحبك ، وهى أم طفلك !

فتراجع نيقولاى مبغوتا وصاح :

— أأنت الذى تقول هذا ؟.. أنت الذى كنت أعهده دائما عدو كل زواج غير متكافىء ؟. ألا فاعلم أنى ما أحجمت عن الزواج منها حتى اليوم إلا احتراما لشعورك !

— أخطأت كل الخطأ . وانى أعتقد الآن ان بازاروف كان محقا حين اتهمنى بالأرستقراطية المزيفة مادمت أنت قد ظننت بى هذا الظن !

فانكفأ نيقولاى بتروفتش على صدر شقيقه وعانقه مراراً عديدة صائحا :

— لقد فتحت عينى وأنرت حياتى !. لم يخب ظنى فيك فأنت خير الرجال وأصفاهم روحا . وانى أعدك بإتمام رغبتك فوراً . ولكن ماذا عسى أن يقول اركادى ؟

— اركادى ؟. إنه سيسر كثيراً .. ثم انه من أنصار المساواة والاخاء بين الطبقات !

— إنك يا أخى أكرم الرجال عنصراً .!

— وما رأيك ؟. أترى أن نخبرها الآن ؟

— لاداعى للعجلة !. ثم أظن أنك كنت تحدثها فى الموضوع قبل حضورى!

— أنا أكلمها فى مثل ذلك الموضوع ؟. يا لها من فكرة !

— ان أهم شىء أولا هو إتمام شفائك !. وسأفارقك الآن كى تستريح وتهدأ ثم نناقش الأمر فيما بعد !

ثم قبل أخاه وانصرف من الحجرة ، فتناول بول زجاجة الماء المعطر فمسح وجهه ثم استلقى وأغمض عينيه !

حب استطلاع

فى ظل شجرة عالية فى حديقة قصر نيكولسكوى ، جلست كاتيا واركادى فوق مقعد متسع ، وإلى جوارهما على الأرض رقد فيفى وقد تقوس ظهره فكأنه أرنب جبلى ضخم . وكان الصمت يخيم عليهما ، وفى يد اركادى كتاب نصف مفتوح . أما هى فكانت تلتقط من سلة صغيرة فتاتا من الخبز تلقمها إلى سرب من القبرات يلتقط ماتلقيه اليه عند قدميها . وكان النسيم لطيفاً له وسوسة بين أوراق الدوحة العالية ، وله فى فراء فيفى تموج ساحر مطرد . وكان ظل الدوحة يخيم فوق الفتى والفتاة ، ولكن أوراقها كانت تنثر بين الحين والحين دنانير من أشعة الشمس الذهبية بين غدائر شعرها الجميل لاتلبث أن تتوارى !

وكان ذلك الصمت يقرب بينهما ، ويزيد استمتاع كل منهما بصحبة الآخر. وإذا نظرنا اليهما وجدنا فيهما تغيراً عن آخر عهدنا بهما : فالفتى أشد رزانة ، والفتاة أشد حيوية وأقل تكلفاً !

وأخيراً هتك اركادى حجاب الصمت قائلا :

— ماذا ترين فى شعر هاينى ؟

— لست دائماً على مذهبه !. فلست أحبه ضاحكا أو باكياً ، وإنما أحبه متأملا خاشعاً

— أما أنا فأحبه ضاحكا !

— ذلك ان عنصر السخرية والتهكم فيك لايزال حياً ، ولأن تطورك لم يتم !

— ليت بازاروف سمع هذا الكلام . وهل هذا رأيك فى حقاً ؟

— كلا !. بل هو رأى أختى ، ورأى بورفيرى بلاتونتش ورأى خالتى

التي صحبتها منذ ثلاثة أيام إلى الكنيسة ، فقد أجمعوا أنك تطورت كثيراً ، ولكن لاتزال أمامك أشواط

— ولكن تذكرى فيما يختص بأختك أنها تعجب بكثير من صفات بازاروف !

— نعم ، لقد كانت واقعة تحت تأثيره إلى حد كبير ، وكذلك أنت!

— وهل ترينني تحررت من ذلك التأثير ؟

— . . . . . .

— إنى أعلم أنك لم تحبيه أبداً فى يوم من الأيام !

— أحقاً ؟. لم يكن لى أن أدينه !

— هذه مسألة تتجاوز طاقة عقلى !. فما من شخص على قيد الحياة لايحق لنا جميعاً أن ندينه ونحكم عليه . وإن التنصل من الحكم ليس إلا تهرباً من الصراحة !

— الحقيقة أن كرهى له أقل كثيراً من شعورى أنه غريب عن معدنى غرابتى أنا أو غرابتك أنت عن معدنه !

— ماذا تعنين ؟

— أعنى ... ترى كيف أشرح لك ما أريد ؟. إننى أراه طائراً ضاريا ، أما أنت وأنا فمن الطيور الأليفة !

— أطائر أليف أنا ؟

فأومأت برأسها ان نعم . فقال :

— اسمعى . إن هذا الرأى ينطوى على إهانة لى !

— ولماذا ؟. أتريد أن تكون طائراً ضاريا ؟

— لا بالضرورة ، ويكفى أن أكون على الأقل قويا قادراً . !

— لاقيمة لهذا !. فقد كان صاحبك قويا قادراً ، ولكنه تمنى لولم يكن كذلك !

— أتعنين أنه كان ذا تأثير قوى فى آنا سيرجييفنا ؟

— نعم ، ولكن مامن أحد يستطيع السيطرة عليها إلى أمد طويل !

— وما الذى يدعوك إلى هذا الاعتقاد ؟
— ذلك أنها متكبرة معتزة باستقلالها !
— ومن ذا الذى لايعتز باستقلاله ؟. اعترفى بأنك تخافينها !
— أخاف من ؟
— تخافينها !
— وهل تخافها أنت ؟
— نعم ، وأرجو أن تلاحظى أن اعتقادى فيك أنك تخافينها أيضاً !
— ثق بأن أختى لم تكن فى يوم من الأيام أميل إليك منها الآن ، فأنت الآن أحب اليها من أول مرة حضرت فيها إلى هنا !
— أحقاً ؟
— نعم . ألم تلاحظ ذلك ؟ كان ينبغى أن تسر لهذا الخبر !
— ألا تظنين ذلك الشعور مصدره أننى أحضرت اليها خطابات أمها ؟
— ربما . ولاسباب أخرى أيضاً لست مستعدة للتصريح بها !
— ولماذا ؟
— كذلك ، لأنى لا أريد !
— أعرفك عنيدة ، كما أعرفك قوية الملاحظة ، ولست أدرى كيف نمت عندك هذه الملكة ، مع أنك متصفة بالحذر والخجل والانطواء !
— إن الانطواء والعزلة يدفعان المرء إلى إدمان التفكير ، ثم هل ترانى خجولا مع الجميع ؟
— دعينا من هذا . فانى أحب أن أناقش السؤال الأصلى ، ان العادة جرت بأن من يكون فى ثرائك العريض من أهل الخجل والانطواء ودقة الملاحظة
— ولكننى لست من أهل الثراء . فكل هذه الثروة لأختى ، وإن كنت بفضلها لم أعرف طعم الحاجة !
— وهل لى أن أسألك سؤالا ؟
— سل !

— لماذا لم تتزوجي رجلا غنياً !

— لو أنني أحببت رجلا غنياً لتزوجته . ولكن مامن رجل غني اعترض طريقي ، ولهذا لم يكن في استطاعتي أن أتزوج على هذه الصورة التي سألت عنها!

— ولماذا لاتتزوجين رجلا غنياً في المستقبل ؟

— لأنني لا أحب الزواج غير المتكافيء !

— أتريدين أن تقولي انك اما أن تسيطري أو ...؟

— كلا !. بل إني موطنة النفس أن أكون خاضعة لسيطرة زوجي،وان كنت أكره عدم المساواة ، فالزواج القائم على احترام الذات مع الخضوع هو سبيل السعادة الحقيقية . أما المذلة فلا أتصورها !

— لعمري أنت من معدن أنا سيرجييفنا ، فأنت تحبين مثلها الاستقلال، مع الميل إلى التكتم وضبط النفس وإخفاء العواطف!

— وكيف يخطر ببالك خلاف ذلك ؟

— وأنت فضلا عن هذا ذكية ، ولك شخصية في قوة شخصيتها على الأقل

— إني أكره أن أكون موضع مقارنة مع أختي!. ويبدو لي أنك نسيت أنها تتمتع بصفتين هما الجمال والذكاء ، وهما ليسا من صفاتي !

— اسمعي يا كاتيا . أرجو أن تثقي كل الثقة بأنني لست مستعداً أن أستبدل أختك أو أي شخص آخر بالآنسة كاترينا سيرجييفنا !

ثم نهض ومشى بعيداً عنها ، كأنما هاله من نفسه أن يقول دلك . أما كاتيا فوضعت يديها في سلة الخبز وأطرقت برأسها ، وراحت تلاحقه بنظراتها خلسة ، وقد زحفت الدماء إلى خديها ، وومضت في عينيها ابتسامة انحسرت عن شفتيها . ثم سمعت من خلفها صوت انا :

— هل أنت وحدك ؟. حسبت أن اركادي معك ؟!

فرفعت كاتيا عينيها نحو أختها التي كانت في ذروة أناقتها وزينتها ، ثم قالت ببطء :

— نعم ، إني وحدي !

— هل ذهب إلى البيت ؟

— ربما .!
— وهل كنت تطالعين معه ؟
— نعم !
فوضعت انا يدها تحت ذقن كاتيا ثم رفعت وجهها اليها وسألتها :
— أرجو ألا تكونا قد تشاجرتما ؟
— كلا !
ثم أزاحت يد أختها التي قالت عندئذ :
— يالها من إجابات صارمة !. لقد جئت لأقترح عليكما المشي ، لأنه لا يفتأ يدعونى إلى ذلك . ولهذه المناسبة جاءتنا من المدينة عينات الأحذية الجديدة فجربيها ، لأنى لاحظت بالأمس أن حذاءك غير لائق. والواقع أنك قليلة العناية جداً بمظهرك . واعلمي أن لك قدمين رائعين ويدين قبيحتين ، فاعتنى بقدميك لتبرزى فتنتهما !
واتجهت الأختان إلى القصر . أما اركادى فكان قد اتجه إلى حجرته . وفى طريقه اليها قال له كبير الخدم ان السيد بازاروف فى انتظاره بمخدعه منذ دقائق ، فصعد مباشرة اليه وهو يمنى النفس ألا يكون شيء مكدر قد وقع . وبعد أن عانق بازاروف سأله بلهفة :
— هل الجميع فى البيت بخير وعافية ؟
— كلهم بخير !. ولكنهم ليسوا جميعاً بعافية ، ولكن اسقنى أولا كأساً من الكفاس ، ثم بعد ذلك أقص عليك الأخبار كلها !
وبعد ذلك روى له بازاروف كل شيء ، بما فى ذلك مبارزته مع بول بتروفتش ، وطمأنه على جرحه . وعقب على ذلك بسؤال مفاجيء :
— أرجو الآن أن تكون صلتك بأنا سيرجيفنا قد توثقت وتقدمت !
— صلتي بأنا سيرجيفنا ؟
— وهل أتيت من المدينة إلا لأجلها يا اركادى ؟. أم تريد منى أن أصدق خرافة مدارس الأحد ؟. لا تحاول أن تنكر أنك تحبها . أم تعلمت الكتمان ؟
— لقد كنت دائماً صريحاً معك كما تعلم ! فأرجو أن تصدقنى حين أقول

لك إن ظنونك فى غير محلها على الاطلاق !

— لا تكترث !. فالمسألة عندى لا قيمة لها . وكل ما هناك أنى أعتقد أنه لم يعد بأحدنا حاجة الى الآخر بعد الآن !

— الجيني !

— وأى بأس فى هذا ؟. إننى يا صديق راحل الآن فوراً . !

— أترحل هكذا دون أن تسلم عليها ؟

— ولم لا ؟

— لأن فى ذلك منافاة لللياقة وإهانة لأنا سيرجييفنا . وأنا أعلم أنها تود لو تراك !

— كلا ! .. إنها لا تود ذلك !

— أنا متأكد كل التأكد أنها ترحب بذلك . فما الذى أدخل فى رأسك هذه الأفكار ؟ وهل تريد أن توهمنى أنك لم تحضر خصيصاً من أجلها ؟

— ربما كانت لديك ظنون وفروض ، ولكن تأكد أنها خاطئة !

وقد تبين بعد ذلك أن أركادى كان على حق . فانها عندما سمعت بوجود بازاروف بعثت إليه كبير الخدم يدعوه لمقابلتها . وذهب بعد أن رتب هندامه ما استطاع ، الى حيث تنتظره فى حجرة الاستقبال . وهناك منحته أطراف أناملها فطبع عليها قبلة . وكانت هاشة باشة ، غير أن بعض التوتر كان يبدو عليها برغم أنفها !

وأسرع بازاروف يقول لها :

— أرجو أن تسمحى لى أولا بتطمينك . فالواقف أمامك جثة شخص ثاب الى رشده ، ويأمل أن يكون الناس قد نسوا حماقته وأخطاءه . ومن المرجح أننى سوف لا أراك الى أمد مديد . وأود أن أرحل وأنا مطمئن الى أن صورتى لم تعد تثير فيك النفور !

وكانت تكتم أنفاسها كأنها شخص وصل لتوه الى قمة جبل عال . ثم أضاء وجهها بابتسامة مشرقة ، ومنحته يدها مرة أخرى ، يدها كلها هذه المرة ، وسمحت ليدها أن تستجيب لضغط يده ، ثم قالت :

— لا تحاول إيقاظ الشجن النائم !. ولكن أصدقاء بعد أن أفقنا من ذلك الحلم . فمن ذا الذى يذكر الأحلام بعد أن يصحو من الرقاد ؟

— من ؟. ولكن الحب ليس حلماً ، وإنما هو عاطفة محسوسة !

— يسرنى أن أسمعك تقول ذلك !

وقد توهم كل منهما أنه صادق . ولكن هل كانت هذه هى الحقيقة ؟.. الحقيقة الكاملة ؟ إنهما لم يكونا يدريان ، ولسنا نحن أيضاً ندرى . ومع ذلك فقد خلقت تلك الكلمات جواً من الثقة

وسألته أنا بعد ذلك عن مقامه لدى آل كيرسانوف ، فقال لها إنه كان منهمكا فى العمل والدرس . فقالت عندئذ :

— أما أنا فكنت لسبب أجهله منحرفة المزاج ، أفكر فى السفر إلى الخارج . ولكن النوبة أوشكت أن تنتهى بفضل وصول صديقك اركادى نيقولايفتش . وأعتقد أيضاً أنى أوشكت أن أئوب الى نمط حياتى المألوف !

— وما هو هذا النمط ؟

— أن أكون خالة أو مؤدبة أو أماً لشقيقى الصغرى . ولهذه المناسبة أذكر لك أنى كنت دائماً أعجب لصداقتك واركادى نيقولايفتش ، مع أنه كان يبدو تافهاً جداً فى نظرك . أما الآن فقد زادت معرفتى به ، وبت مقتنعة أن له عقلا راجحاً . ثم إنه شاب ، فى مقتبل العمر !

— وهل لم يفارقه حياؤه فى حضرتك ؟

— لقد صار ذا ثقة فى نفسه ، وأصبح يكلمنى بحرية ، مع أنه كان فى مبدأ الأمر يتحاشانى كأنه يهرب منى ، مع أنى لم أكن أكلمه . ثم انه قد أصبح الآن صديقاً حميا لكاتيا .!

— ولكن لا شك أنه كان فى الحالة الأولى يكن لك عاطفة عنيفة !

— ماذا تقول ؟. أهو أيضاً ؟

— نعم هو أيضاً !. وكنت أحسبك تعرفين ذلك !

— أعتقد أنك مخطىء !

— كلا !. ولكن ربما كان يجب علىّ ألاّ أشير الى المسألة !

— ولماذا لاتشير إليها ؟. إنى أراك تعلق أهمية على مشاعر عابرة ، وأ كاد أعتقد أنك ميال الى المبالغة !

— فلنتحدث فى موضوع آخر !

— ولماذا ؟

ولكنها أقدمت من جانبها على تغيير الموضوع ، بعد أن طمأنته ، واعتقدت أنها دفنت الماضى . ومع ذلك فقد كانت تشعر بشىء من الحرج وعدم الارتياح وهى تتبادل معه الفكاهات . ثم بدأ ذهنها يشرد فتجيب على أسئلته إجابات لا صلة لها بموضوع السؤال ، ثم اقترحت عليه أخيراً أن ينتقل إلى البهو ، حيث وجدا كاتيا والأميرة ، فسألت عن اركادى ، فقيل لها إن أحداً لم ير له أثراً منذ ساعة . فبعثت الرسل فى أثره ، فلم يجدوه إلا بعد وقت طويل لأنه كان قد انزوى فى أقصى الحديقة ، حيث جلس مطرقاً يفكر !

وكانت أفكاره عميقة ، ولكن فى غير حزن . ومع أنه كان يعلم أن أنا سيرجييفنا كانت منفردة بيازاروف ، لم يشعر بشىء من الغيرة . بل شعر بشىء يشبه الدهشة والسرور ، وربما لأن ذلك قد كشف عن حقيقة سريرته ، وأعانه على الوصول الى قرار معين !



فى اليوم التالى لوصول بازاروف كانت كاتيا فى موضعها المعتاد من المقعد الخشبي ، وإلى جانبها اركادى . وكان قد طلب اليها أن تصحبه إلى هناك . وكانت الحرارة شديدة مع ان الوقت لم يكن قد تقدم كثيراً منذ طلعت الشمس !

وكان وجه اركادى كوجهه بالأمس . أما هى فقد علت وجهها مسحة من فتور الهمة ، ذلك أن أختها دعتها إلى حجرة زينتها بعد الافطار مباشرة ، ولفتت نظرها إلى وجوب الحذر فى الحديث والاختلاء بأركادى ، وأن عليها أن تتجنب تلك الخلوات التي يبدو أنها قد أثارت انتباه الخدم ، ولفتت نظر الأميرة بوجه خاص !

والواقع أن أنا سيرجييفنا كانت منذ أمس مساء منحرفة المزاج ، شديدة التوتر العصبي . ولما كان ضمير كاتيا غير نقى كل النقاء من جهة هذا الموضوع

بالذات ، فقد منت نفسها كالمعتذرة حين طلب منها اركادى تلك الخلوة انها ستكون المرة الأخيرة !

وكان يبدو على الفتى شيء كثير من الحرج والارتباك حين بدأ الكلام قائلا:

— كاتيا ، منذ أتاح لى حسن طالعى أن أقيم معك تحت سقف واحد سنحت لى فرص كثيرة للحديث معك فى أمور شتى . ولكننى لم أكن أعلق أهمية إلا على موضوع واحد ، ومع هذا فلم أخض فى هذا الموضوع معك بعد . وقد قلت بالأمس انى تطورت منذ حللت داركم . وانى أصارحك بأن ذلك التطور أمر لمسته بنفسى . ولعلك أحسن الناس إدراكا لهذا التطور ، لأنك صاحبة الفضل الأكبر فيه !

— أنا ؟

— نعم أنت !. فلم أعد ذلك الفتى الذى كنته منذ زمن قصير. ومع انى لازلت أؤمل أن أكون نافعاً فى الحياة ، وأؤمل أن أخصص مواهبي جميعاً وجهودى لخدمة الحق ، إلا أننى لم أعد أنشد مثلى العليا حيث كنت أنشدها بالأمس . ان مثلى العليا اليوم يا كاتيا أقرب ماتكون إلى الدار ، إلى البيت ، وأحسبنى كنت جاهلا أمر نفسى من قبل ، ولهذا كنت أنشد من الأهداف مايتجاوز طاقتى . أما الآن فقد تفتحت عيناى على النور الجديد . وربما كانت طريقتى فى التعبير غير واضحة أو مبينة ، ولكننى فيما أرجو قد استطعت افهامك ما أريد !

ولم تجب كاتيا . بل غضت بصرها بعد أن كانت تحدق فى وجهه . فاستطرد هو قائلا :

— ان واجب الرجل الشريف أن يكون صريحاً مع الذين يتاخمون حياته عن كثب ... ولهذا فانى ...

وعندئذ خذلت اركادى بلاغته فتلعثم برهة طويلة ، وكاتيا مطرقة لاترفع اليه عينيها . وكان يخيل إلى الناظر أنها لم تكن تعى شيئا من مغزى ذلك التمهيد الطويل ، وانها كانت تتوقع أن تسمع شيئا يختلف عن طبيعة ماسمعته كل الاختلاف . !

وأخيراً وجد لسانه فاستأنف الحديث :

— انى أعلم أن ماسأقوله واقع ولا شك من نفسك موقع الغرابة . وأكبر ماتكون تلك الغرابة حينما أخبرك أن الشعور الذى أثيرت اليه الآن يتعلق بك أنت . فبالأمس ، كما تذكرين ، نسبت إلى شيئا من النزق ، وذلك اتهام أعتقد أننى أصبحت لا أستحقه . فلو أننى كنت على شيء من الجرأة — كان الله لى ! — لأمكننى . . .

وقطع عليه لعثمته فى هذه اللحظة صوت انا سيرجييفنا النقى النبرات :

— آه لو كنت واثقة بأنك تعنى حقاً ماتقول !

ففغر اركادى فاه مبهوتا ، واكفهر وجــه كاتيا ، والتفتا ليريا بازاروف ومدام اودينتسوف مقبلين فى الممشى . وكانت الأشجار تخفى الفتى والفتاة عن أنظار القادمين . ولكنهما كانا يسمعان بوضوح ألفاظهما ، بل صوت تنفسهما !

واستطردت انا سيرجييفنا تقول :

— إن الأمر على هذا النحو .. لقــد تورطنا فى غلطة . وكلانا ليس فى مقتبل الشباب الغرير . ولاسيما انا . وكلانا خبر الحياة وتعب منها . وكل منا — ودع جانبا التواضع الكاذب — قد أثار فى الآخر اهتماما خاصاً لأول وهلة ، ونبه فيه حب الاستطلاع ، ثم . . .

فقاطعها بازاروف قائلا :

— ثم انقلبت فجأة فى عينيك إلى التفاهة !

— كلا !. ليس هذا هو السبب الحقيقى كما تعلم جيداً . ولكن مهما يكن السبب الحقيقى ، فانه لا حاجة لأحد منا بالآخر ، حاجة ملحة ملحئة . وهذا هو لباب الموقف . فكل منا شخصية غانية بنفسها عن الأخرى ، غير محتاجة اليها لتكملها

— وهل أنت فى حاجة ملحة ملزمة اليه ؟

— يا للعار يا الجينى !. أنت تعلم تمام العلم أنه لايعنينى فى كثير ولا فى قليل ، ولا خطر له عندى . وقد خطر لى منذ زمن أنه يكن لى شعوراً هو على الأقل

شعور بالاعجاب ، ولكنني في سن أصلح معها أن أكون خالة له . وان كان ذلك لم يمنع أن أغدق عليه من اهتمامي الشيء الكثير ، لأنني لمست في عاطفته الساذجة الشابة المتدفقة لونا خاصاً من ألوان السحر والفتنة !

— بل قولي الافتتان . والواقع أنني وجدت في اركادي بالأمس شيئا غريباً حقاً لم أكن أعهده فيه من قبل . وجدته كتوما ، فلم يشر بشيء اليك أو إلى أختك ، وذلك كما تعلمين من الأعراض ذات الدلالة الكبيرة !

— إنه وكاتيا كالأخوين الشقيقين . ويسرني أن أراهما كذلك . وان كان ينبغي أن أضع شيئا من الحدود لهذه الألفة !

— وهذا الاجراء طبعاً صادر منك عن طبيعة الأخت ؟

— بطبيعة الحال !. ولكن هل يجب أن نظل واقفين هكذا ؟ . هيا بنا ألسنا نطرق موضوعات غريبة ؟ . ولست أدري كيف أطرق معك هذه الموضوعات ! ومع ذلك فلازلت أشعر بشيء من الخوف منك . وإن كنت أثق بأنك في أعماق سريرتك إنسان طيب !

— أنا أبعد الناس عن الطيبة !. وإنما تصفينني بتلك الصفة لأنني فقدت في عينيك كل قيمة !

وابتعد بعد ذلك صوتهما عن أسماع الفتى والفتاة ، فساد الصمت التام . والتفت اركادي إلى كاتيا ، فوجدها على حالها وجلستها ، غير أنها كانت أشد إطراقا ، فضم راحتيه وقال لها في حماسة وتدفق :

— يا كاترينا سيرجييفنا ، سأحبك إلى الأبد حباً لا رجعة فيه ، ولن أحب ماحييت امرأة سواك . هاك يا كاتيا ما كنت أحاول أن أقوله لك ، تمهيداً لطلب يدك . وقد علمت يا كاتيا أنني رجل ليس بالغني ، ولكني لن أحجم عن أي تضحية في سبيلك . والآن أريد أن أسمع جوابك . فهل تثقين بي ؟ . لاشك أنك موقنة بأنني لا أصدر في كلامي هذا عن نزق هازل . واسترجعي الأيام القليلة الخوالي : ألست ترين أن شخصيتي القديمة كما تعرفينها قد تلاشت إلى الأبد ؟. انظري في وجهي وقوليها كلمة واحدة . آه كم أحبك !. فلا تجحديني ولا تنكريني ولا تنكري إخلاصي

فرفعت كاتيا رأسها ، وقد اكتسى مهابة وجداً جاداً ، ولكن العينين كانتا تفيضان بلألاء مشرق من البشر ، ثم قالت فى ابتسام يسير :

— أجل !

فقفز واقفاً وهو يقول :

— أجل ؟. أجل يا كاتيا ؟. ولكن ماذا تعنين بهذه الكلمة ؟. أتعنين انك تؤمنين بحبي لك وتصدقين حكايتى عنه ، أم تراك تعنين ...؟ كلا . كلا . لا جرأة عندى على إتمام هذه العبارة !

فكررت عليه كاتيا كلمتها الأولى :

— أجل !

ولكن لهجتها هذه المرة لم تدع لديه محلا للبس . فقبض اركادى على يدها الكبيرة — ولكنها على كبرها لا تخلو من اتساق — ثم رفعها إلى صدره . وكان لفرط اضطرابه لا تكاد تقوى ساقاه على حمله . وكان لا يفتأ يكرر اسمها ، كأنه نسى ما عدا ذلك الاسم من أحرف وكلمات . وتساقط دمعها نقياً صافياً وهى تبتسم من وراء تلك القطرات ، ابتسامة ليس فيها ظل من الأسى أو الحرمان !

لقد كانت دموع جيشان فاض به الوجدان بعد أمد طال من الكتمان ، وما من رجل لم ير فى عينى محبوبته مثل تلك الدموع قد عرف ذروة السعادة التي تصل اليها المرأة حين يمتزج فى وجدانها الشكر والحب والتواضع والاذعان وعرفان الجميل وتذوق الحياة !



وفى الصباح التالى أرسلت أنا سيرجييفنا تدعو بازاروف إلى حجرة زينتها ، فلما دخلها وعلى شفتيه ابتسامة مغتصبة أعطته ورقة مطوية ، كانت فى واقع الأمر خطاباً من اركادى يطلب اليها فيه يد شقيقتها . فلما قرأ الرقعة قال لها :

— ان الأمر كما قلت لك . أما أنت فكنت بالأمس فقط تؤكدين لى ان شعوره نحو كاترينا سيرجييفنا لا يعدو شعور الأخ نحو أخته !. والآن ماذا أنت صانعة ؟

— بماذا تنصح لى ؟

— أعتقد أنه لا خيار لنا فى تزويد العاشقين الشابين ببركاتنا الأبوية . وجميع الدلائل تشير إلى أن زواجهما سيكون ناجحاً . فوالده صاحب ضيعة لا بأس بها ، ولا أظن والده الطيب القلب سيعترض !

وراحت مدام أودنتسوف تذرع الحجرة دقيقة أو نحو ذلك ، ووجهها تختلف عليه الحمرة والاكفهرار ، إلى أن قالت :

— أهذا هو رأيك ؟. انى لست أرى أيضاً مانعاً معقولا . وانى مسرورة من أجلها ، ومن أجله أيضاً . ولكن ينبغى أن أنتظر إقرار والده . وقد اعتزمت أن أبعث اركادى نفسه إلى نيقولاى بتروفتش ليحصل على موافقته... لقد كنت إذن على حق فيما قلته لك بالأمس اننا شخنا ؟. ولست أدرى كيف فاتنى أن ألاحظ ذلك قبل اليوم !

وابتسمت مرة أخرى، ولكنها أشاحت بوجهها قبل أن تكتمل ابتسامتها !. وقال بازاروف بعد لحظة صمت :

— ما أمكر الشبان فى هذه الأيام !. والآن وداعاً ، وأرجو أن يتم هذا الموضوع بخير !. ولا شك انى سأبتهج لتمامه عن بعد !

فتحولت اليه وسألته بجد :

— ألا مناص حقاً من ذهابك ؟. لماذا لا تبقى مدة أخرى ؟. ابق من فضلك ، لأنى أجد فى الحديث اليك ما ينشطنى ويستنهض روحى ... ان الكلام معك أشبه ما يكون بالسير على شفا هاوية ، فذلك يدخل الرعب فى أول الأمر على النفس ، ثم يستجمع المرء شجاعته بعد ذلك شيئاً فشيئاً . فهلا بقيت !

— أشكرك وأشكر لك هذا الاقتراح ، كما أشكر لك تقديرك الكريم لمواهبى الكلامية . والواقع انى فى ذلك كالسمك الطائر ، لاقدرة له على البقاء فى الهواء طويلا ، ولا بد له من العودة سريعاً إلى عنصره الأصيل ، والهواء هو الكلام ، وعنصرى الأصيل هو العمل والصمت !

وكانت تتلاعب على معالم وجهه ابتسامة مريرة . وقد رأت هى تلك الابتسامة

فامتلأ قلبها بالأسف له ، وقالت فى نفسها ، وهى تمد اليه يداً حانية :

— ان الرجل ما برح يحبنى !

وأدرك ما يدور فى نفسها فتراجع خطوة أو خطوتين وهو يصيح :

— كلا . كلا !. قد أكون فقيراً ، ولكننى ما تكففت يوماً ولا تقبلت الصدقة !. وداعا ولتسعدك الأيام ، وليكن نصيبك منها مشرقا مزدهراً !

— ولكننا سنلتقى مرة أخرى . انى واثقة من هذا !

— كل شىء فى هذه الدنيا جائز الوقوع !

وانحنى وانصرف !

وفى عصر ذلك اليوم قال لأركادى وهو يحزم أمتعته :

— سمعت انك أزمعت أن تبنى لك وكراً . ولم لا ؟. انه اتجاه طيب . وقد توقعت أن تقدم عليه . ولكن لماذا لا تتكلم ؟ هل عقد شاغل القلب لسانك؟

— عند ما فارقتك فى مارينو لم يكن شىء من ذلك قد خطر لى !

— لا يزال فى حقيبتي مكان فارغ ، ولهذا سأعمد إلى ملئه بالقش والتبن. وكذلك يا بنى حقيبة الحياة ، نملأ المكان الشاغر فيها بأى شىء وجدناه . وقد ثرثرت كثيراً فى حياتى ، لأنى لم أجد ما أصنعه خيراً من الثرثرة . فلا تكترث لما كنت تسمع منى عن الزواج . ولعلك تذكر رأيي القديم فى كاترينا . وانى لاخالها قمينة أن تسيطر عليك ، فان لها عقلا ، وان فى معدنها لصلابة وقوة . والآن استودعك الله . ولا أخدعك . فهذا فراق الأبد . وقد علمت ذلك . وأعتقد انك أحسنت الاختيار ، فما كان طريقك على العدمية بمستقيم ، فلم تخلق لمثل ذلك . وكل ميسر لشىء . وأنت شاب لا بأس به ، ولكنك محدود العقل ، يكفيك أن تصطنع التحرر ، وتعيش كما يعيش السادة من أوساط الناس !

— اجينى ! اجينى ! أذلك كل ما عندك من كلام لى ونحن نوشك أن نفترق فراق الأبد ؟

— بل هناك كلام غير هذا الكلام ، ولكننى أستحى أن آخذ فيه لأنه من باب العواطف الرخوة . وحسبي أن أقول لك أسرع فى الزواج ما استطعت ،

وشيد عشك واكثر نسلك . ولكن لا أحسبنى أصلح لهذا الكلام. فاقرضه ودعنى أمض إلى جيادى التى أسأمها انتظارى. والآن هل نتعانق عناقا أخيراً ؟

وطفرت الدموع من عينى اركادى وهو يتعلق بعنق صديقه وامامه القديم

— ياللشباب من ينبوع غنى ! ولكن ستهذب كاترينا سيرجييفنا كل هذا، وسوف يكون لك فيها عزاء ايما عزاء !

وانطلق !

ولم يكن بازاروف مخطئا ، فعند ما خيم الليل فى أعقاب ذلك النهار ، كان اركادى غارقا فى التحدث إلى كاتيا وقد نسى تمام النسيان امامه الراحل !

وكان بازاروف صادقا مرة أخرى ، فقد بدأ اركادى ينقاد لخطيبته فى كل ما تراه . ولم تكن الفتاة تبدى الدهشة لانقياده ، فقد كان ذلك عندها أمراً مقضيا ، ووضعا منطقيا طبيعيا !

ورتبت الأمور تلك الليلة بحيث يسافر اركادى فى اليوم التالى إلى مارينو للاجتماع بوالده . ويظهر أن آنا سيرجييفنا خشيت على نفسها صدى اجتماع الخطيبين وما يرتسم على وجههما ، فتذرعت بجلدها . ولكن تكشفت لها التجربة عن متانة عودها ، فلم تشعر بضض، بل بكثير من الارتياح والسلوى، حتى انها قالت :

— ان بازاروف على حق . فما كان الأمر كله إلا حب استطلاع عابر !

وفى ذات مرة سألت اركادى وكاتيا :

— خبرانى ياولدى العزيزين : هل الحب عاطفة محسوسة ؟

ولكن أحداً منهما لم يفهم مرادها . ويضاف إلى هذا أنهما كانا يستحيان منها إلى حد ما . ولا سيما لأنهما لم يستطيعا نسيان ما سمعاه من حديثها دون أن تدرى وهى فى صحبة بازاروف . على ان آنا سيرجييفنا استطاعت القضاء على ذلك الاستحياء ، كما استطاعت التغلب على شعورها بالفشل وخيبة الأمل !

على فراش الموت

كان سرور آل بازاروف بعودة ابنهما لا يوصف ، ولا سيما حين قال لهما : « سأمكث معكما ستة أسابيع . ولـكنى أريد أن أعمل ، وبغير إقلاق »

— إننا لن نقلقك ياولدى ، بل سترى أنك تكاد تنسى صورة وجوهنا !

وبر فاسيلى ايفانتش بوعده فترك حجرة المكتب لابنه . وصار لا يدخل عليه فيها ، وحرم أيضاً على زوجته إظهار حنانها على وحيدها حتى لايضجر ، ورضخت المرأة المسكينة ، مكتفية بمشاهدة ابنها على مائدة الطعام . وحتى فى هذه الفترات كانت تخشى أن تكلمه ، وقدتنسى أحياناً فتناديه : « يا اينيوشا » ، لـكنها سرعان ماتتذكر وعدها لزوجها ، فتعبث بهدب ثوبها ثم تقول متلعثمة : « كلا !.. لا شىء !. » . ثم تتجه الى زوجها قائلة :

— خبرنى أنت يا عزيزى فاسيلى ايفانتش ماذا يمكن أن يحب ابننا لعشائه !

— اسأليه !

— كلا . قد يضايقه هذا .!

ولـكن بازاروف قلل من خلواته باختياره ، لأن حمى العمل أعقبت فترة من هبوط الهمة والملل والقلق . وفارقه اعتزازه بنفسه وإعانه بها ، وأصبح أكثر استجابة لحياة الجماعة . وقد أثار ذلك التغير قلق أبيه ، وصرح بذلك لزوجته التى قالت فى أسى واستسلام : « إنه نحيف !. لقد هزل !. ومع هذا فلا يمكننى أن أطوق عنقه بذراعى ! » .

وبدأ أبوه يستشيره فى أعماله ، ويتحدث إليه فى مسائل الطب ، كما أخذ بازاروف يخرج إلى القرية القريبة ويحادث الفلاحـين ، مستطلعاً آراءهم فى أصل العالم ، وفى الأخلاق ، وفى مبادىء العدالة الاجتماعية ، فلا يجد عند هؤلاء

المساكين أى فكرة صحيحة عن العالم أو عن حقوقهم المادية والأدبية !

وشرع بازاروف بعد ذلك يعود المرضى مع أبيه ، فكان ذلك موضع فخر الشيخ الذى لاينقضى ، فهو يطرى براعة ابنه الفنية مصبحاً وممسياً ، وفى مواجهته ومن وراء ظهره !

وفى ذات مرة جاء فلاح من قرية مجاورة بأخ له مريض مستلق على وجهه فوق عربة قش . وكان مريضاً بالتيفوس فى مرحلته الأخيرة ودخل فى دور الغيبوبة وقرر فاسيلى ايفانتس أن أوان العلاج قد انتهى للأسف ، فلا أمل فى الشفاء على الاطلاق . ومات الرجل فعلا قبل أن يعود به شقيقه إلى مسقط رأسه !

وبعد ثلاثة أيام دخل بازاروف حجرة أبيه ليطلب منه شيئا من حجر جهنم !

— عندى جانب منه فعلا . ولكن لماذا تريده ؟

— لتعقيم جرح !

— جرح من ؟

— جرحى أنا !

— أنت ؟ أرنى الموضع . أين هو ؟

— هنا . فى هذا الأصبع ، فقد توجهت اليوم إلى القرية التى جاءنا منها منذ أيام ذلك المريض بالتيفوس ، وقد حاولوا إخفاء الجثة ، ولكننى أفلحت فى اكتشافها ، وكنت متشوقا منذ مدة إلى العثور على حالة كهذه للتشريح !

— وبعد ؟

— وبعد ، حدث أن جرحت نفسى ، فلما أسرعت إلى طبيب المنطقة لم أجد عنده شيئا من حجر جهنم !

فابيضت شفتا الشيخ ، وأسرع دون أن ينبس إلى مكتبه وعاد منه بشىء من حجر جهنم . ثم أخذ يعقم الجرح بنفسه . وقال بازاروف :

— كان ينبغى ان نبكر بالتعقيم ، أما الآن فلا أظن أن حجر جهنم يفيد فى شىء ، لأن الجراثيم سرت مسراها !

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أنه قد انقضى على الجرح أربع ساعات !

وفى الأيام القليلة التاليـــة ، جعل فاسيلى ايفانتس يختلق المناسبات لدخول حجرة ولده . حتى إن بازاروف كان يضيق به ويأمره بالخروج . وكان قــد كتم الأمر عن زوجتـــه حتى لاتجزع ، وفى اليوم الثالث لم يأكل بازاروف شيئا ، بل جلس إلى المائدة مطرقا فقال أبوه :

— أراك لا تأكل شيئا يا الجينى ، والطعام فيما أرى جيد ؟ !

— لست جائعاً !

— أليست لك شهية ؟ . هل تشعر بصداع ؟

— نعم أشعر بصداع . ولماذا لا أشعر بصداع ؟

— لاتغضب !. ولــكن هل لى أن أجس نبضك وأفحصك !

— لاحاجة بك إلى جس النبض . أستطيع أن أؤكد لك أننى محموم !

— هل بك رعدة ؟

— أجل !. وأظن أنه يحسن أن أرقد . وأحسب أنه قد مسنى برد !

وغادر المائدة وقامت أمه لتصنع له شراب الليمون . أما فاسيلى ايفانتش فخرج إلى الحجرة المجاورة وأخذ يجذب شعره !

ولم ينهض بازاروف من فراشه ذلك اليوم ، وقضى ليلة فى غيبوبة ثقيلة . وفى الساعة الأولى فتح عينيه بصعوبة . فلما رأى وجه والده الشاحب فى ضوء الصباح أمره بالخروج ، فاعتذر الرجل وخرج ، غير أنه لم يلبث أن عاد متسللا ليرقب حالة ابنه . وكذلك الأم أخذت تطل عليه بين الحين والحين !

وفى الصباح حاول بازاروف أن ينهض ، ولــكنه شــعر بدوار ، وانبثق الدم من أنفه فرقد . وســـأله أبواه عن حاله ، فقال : « أحسن ! » ثم أدار وجهه إلى الحائط ، وعندئذ راح فاسيلى ايفانتش يومىء إلى زوجته بإشارات عنيفة ، فعضت المرأة على شفتيها بقوة كى تحبس دمعها ، ثم تركت الغرفة !

وكأنما خيم الظلام على كل شىء فى البيت فجأة ، فالوجوه واجمة، والنظرات شاردة . وبازاروف لايتحرك فى فراشه ولا يحول وجهه عن الحائط . وكان أبوه يخرج أحيانا إلى الحديقة ويقف جامداً كالتمثال، وقد ارتسمت على وجهه دهشة بلهاء . حتى إذا عاد إلى البيت حاول أن يتجلد ليخادع امرأته ، وتكلف

الابتسام ، فاذا الابتسام ينقلب دون أن يدرى ضحكا ليس فيه من معانى الضحك شيء ! . وكان الرجل قد بعث منذ الصباح إلى الطبيب كى يحضر ، ورأى أن يمهد لدى ولده لحضوره ، فقال بازاروف بصوت أجش : « يا أبى !. إن الشوط قد بلغ نهايته. لقد أصابتنى العدوى وبعد أيام معدودات ستوسدنى قبرى ! »

فترنح الشيخ وهتف : « ماذا تقول يا الحبيبى ؟ حماك الله ! إنه برديسير ! »

— اسمع .. لا طائل تحت كلام كهذا توجهه إلى طبيب . فكل علامات العدوى ظاهرة . وأنت تعلم هذا !

— ولكن أين هى هذه العلامات ؟

— انظر . ماهذه ؟

وجذب بازاروف كم قميصه ، فرأى أبوه عدداً من البقع الحمراء ، فبردت أطرافه ، ولكنه مع هذا راح يكابر ليخدع ابنه ، وليخدع نفسه قبل ذلك

فقال بازاروف : « لقد بعثت فى طلب الطبيب ليشد أزرك ، وذلك لا ضير فيه . ولكنى أريد منك إذا كنت تريد أن تسرنى أن تبعث إلى . . »

— اركادى نيقولايفتش ؟

— اركادى ؟ أتعنى ذلك الديك ؟. إن هو إلا ديك صغير ، كلا !. لا تزعجه ، فقد انضم إلى سرب اليمام ، أوفى الطيور فى الغرام . كلا !. ليس هذا هذيانا ، وإنما هى استعارة . ابعث كلمة إلى مدام اودينتسوف . ولا حاجة بالرسول أن يقول شيئا أكثر من هذه الكلمات : « ان الحبيبى فاسيليتش يبعث بتحياته وهو يموت » . فهل أنت فاعل ؟

— طبعاً سأفعل . ولكن لماذا تظن أنك ستموت .. لئن حدث شيء كهذا فأين إذن عدالة السماء ؟

— لا أدرى ، ومبلغ علمى أننى أريد أن يذهب الرسول فوراً !

وأدار وجهه إلى الحائط ، وصعد أبوه إلى مخدعه فركع أمام الايقونات وتأوه وهو يقول : « صلى يا أرنيا ، صلى فان ولدنا يموت ! »

وحضر الطبيب ، فأخذ بازاروف يمازحه لأنه تحدث عن احتمال الشفاء :

— هل رأيت من قبل أحداً فى مثل حالتى رده الموت عن أبوابه ؟

ثم مد يده فأطبق على المنضدة التي بجوار الأريكة فقلبها ثم صاح :

— انظر إلى قوتي !. انها لاتزال حاضرة . ومع هذا فلا مفر من الموت !. تصور أني أنا القوى أترك الحياة ، ويبقى فيها الشيخ الفاني الذى فقد الاحساس بالحياة . أسمع أحداً يبكى . من هذا ؟ أهى أمى ؟. يا للمسكينة ! لن تجد من بعدى من تطعمه متلذذة بما هيأت من طعام . وأنت يافاسيلى ايفانتش ؟. هل عجزت المسيحية عن امدادك بالجلد والسلوى ؟ جرب إذن فلسفة أصحاب الرواق ، فطالما زعمت نفسك منهم

وتدحرجت الدموع على خده المتغضن !

وأخذت الحمى مجراها بخطى سراع ، ولكن ذا كرته لم تهن ، وقريحته ظلت على وعيها ، وكان يجاهـد فى الاحتفاظ بيديهته ، ويضم قبضتيه مردداً :

— كلا !. لن أغيب عن صوابى ، ٨ + ١٠ = كم

وكان أبوه يدور حول نفسه وحول الحجرة وهو يصيح مخاطباً الطبيب:

— هل نلفه فى الثلج ؟. هل تضع على معـدته لبخة من الخردل ؟. هل نفصده ؟

وكان الطبيب يهز كتفيه سلباً ، ثم يشرب عصير الليمون الذى أعدته الأم للمريض ، ويطلب بعد ذلك كأساً من الشراب المنعش !

أما الأم فكانت تلوم نفسها لأنها كسرت منذ أسـبوع مرآة ، وذلك فى عرفها نذير سوء مابعده نذير !

وانقضت الليلة فى كرب شديد ، حتى إذا تنفس الصبح هبطت غائلة الحمى ، فأصلح من زينته ، ثم قبل يد أمه واحتسى جرعة من الشاى فهلل أبوه وصاح:

— الحمد لله !. لقد انتهت الأزمة !

— لا تخدعن نفسك أيها الطبيب !. فما معنى كلمة أزمة ؟. هذا لفظ فارغ اخترعه إنسان ثم عبده بقية الناس ، لله كم يجرى الناس وراء سراب الألفاظ . فلو قلت لانسان انه أبله ثم أعطيته مالا لهـذا السبب لغضب ، أما ان دعوته حكيم الزمان وسلبت ماله لكان أسعد أهل الأرض !

— مرحى !. إن قابليتك للكلام داع كاف للاستبشار !

— كلا !. ولكن هل بعثت اليها ؟

— نعم يا الجيني !

ولم يدم هذا التحسن كثيراً ، بل أعقبته نوبات من الألم ، فكان الشيخ يصرخ :

— الجيني ولدي !. ولدي العزيز !. ولدي المحبوب !

وكان بازاروف نفسه يتأثر بذلك الصراخ ، فيحاول التجلد ويقاوم الغيبوبة ليقول لأبيه بصوت ضعيف : « ما هـذا يا أبي ؟ »

فيخر الرجل على ركبتيه بجوار الفراش ويتضرع إلى ابنه :

— إنك أحسن حالا . ستشفى بعون الله . ولكن ارحمني وارحم أمك بقبول الأسرار المقدسة . ألا ما أوجع هذا الطلب لقلبي ، ولكن أوجع منه أن . . . أن تفوت الفرصة إلى الأبد . فكر في هذا يا الجيني !

وساد الصمت بعد ذلك إلى أن قال بازاروف : « من أجل راحتك سوف لا أرفض . ولكن ما دمت تقول إنني أحسن حالا ، فلماذا العجلة ؟ »

— إنك أحسن يا الجيني . . أحسن . ولكن من ذا الذي يدري ما في علم الله ؟ فلماذا لا تتمم ذلك الواجب ؟

— ومع هذا سأنتظر قليلا !

— أرجوك يا الجيني !

— قلت لك سأنتظر قليلا . والآن اتركني لأنام ولا تقلقني !

وأدار وجهه إلى الحائط ، فنهض الرجل الراكع وجلس في مقعده وقد اعتمد بذقنه على راحتيه وراح يعض أنامله . ولم تلبث أذناه أن التقطتا على البعد صوت عربة خفيفة مسرعة تقترب من الدار فقفز من مكانه واندفع نحو النافذة ، ثم اندفع نحو الباب الخارجي متهللا ، فاذا حاجب أنيق الهندام يفتح الباب وتهبط سيدة في رداء أسود وفوق وجهها نقاب أسود فقالت :

— أنا مدام اودينتسوف . هل الجيني فاسيليتش لا يزال حياً ؟ أظنك أباه ؟ لقد أتيت معي بطبيب !

وفيما هي تتكلم هبط الطبيب الألماني من العربة ، فصاح فاسيلي افانتش وهو ينكب على يدها فيضغطها على شفتيه ضغطا وهو يقول :

— أي ملك الرحمة ! نعم ، لا يزال الجيني (بازاروف) حياً ! وسينجو الآن ! يا امرأة ! يا امرأة ! لقد هبط علينا من السماء ملك كريم

وأقبلت زوجته تتكفأ ، فوقعت عند قدمي انا سيرجييفنا ولم تدر إلا وهي تقبلهما بجنون ، وتقبل هدب ثوب الزائرة ، وزوجها يصيح :

— أنت ملك كريم ! هو هنا !

وعندئذ قال الطبيب الألماني في صبر نافد : « أين المريض ؟ »

فأجابه فاسيلي ايفانتش بالألمانية ، وراح يشرح له الموقف وهو يدخل به على المريض الذي فتح عينيه صائحاً :

— أتقول إن انا سيرجييفنا هنا ؟ أين هي ؟ أريد أن أراها

— مهلك .. ولكن يجب أن يفحصك هذا الزميل أولا !

وبدأ الفحص والتشاور فاستغرقا نصف ساعة ، ثم قاد فاسيلي ايفانتش مدام أناسيرجييفنا إلى المكتب الذي كان بازاروف راقداً فيه . وهمس الطبيب الألماني في أذنها وهو خارج بألا أمل في الشفاء !

ورمقته بنظرة أورثتها فزعا لم تستطع مقاومته . وومض في ذهنها في الحال أنها لو كانت تحبه حقاً لما كان لمثل ذلك الشعور مجال

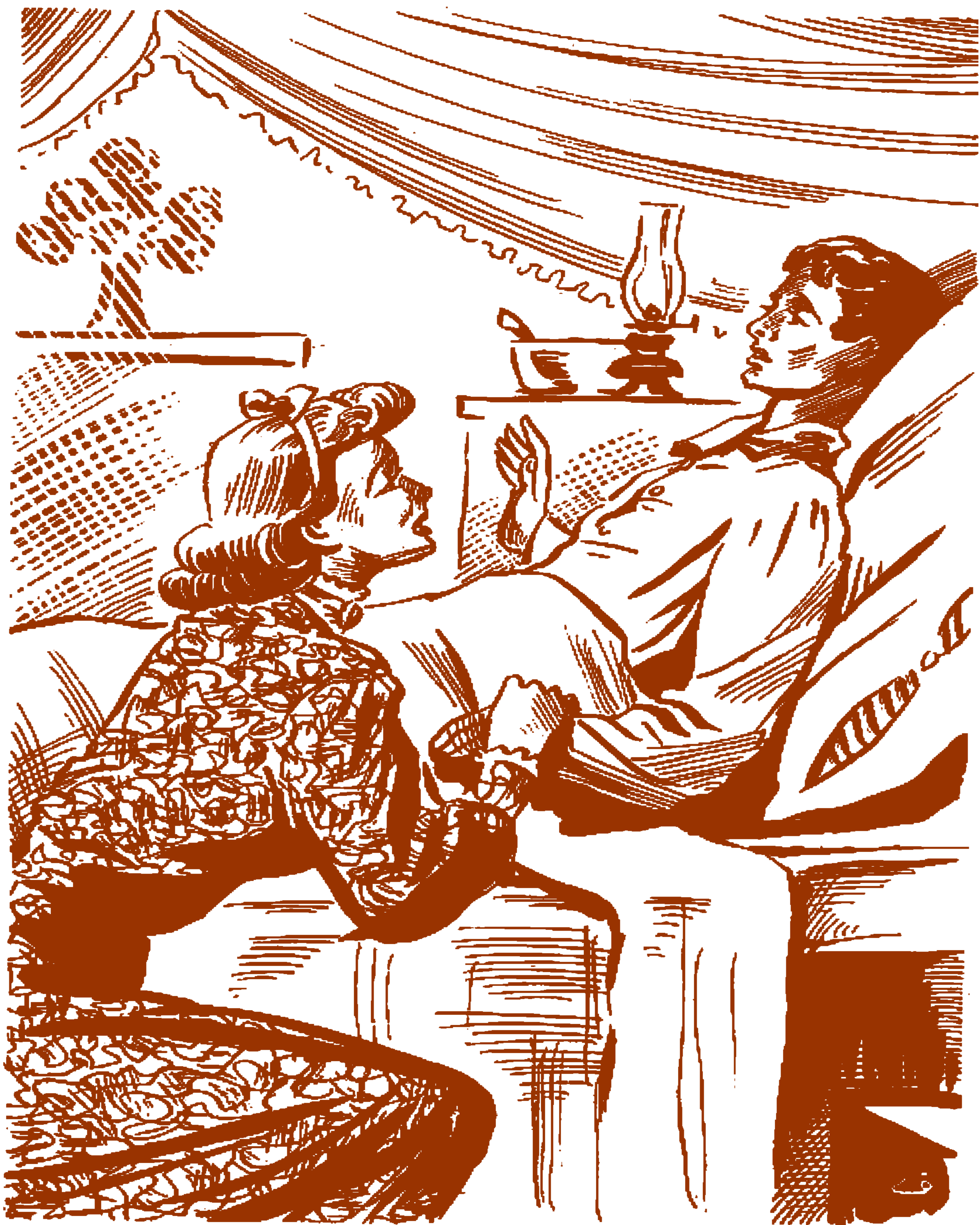
وقال بجهد جهيد :

— أشكرك !. لم أكن أتوقع حضورك ، وهو كرم منك . وها قد التقينا مرة أخرى كما قلت أنت !. كرم عظيم يا انا سيرجييفنا . اتركنا يا أبي !

وخرج الرجل ، وبلعت ريقها ثم قالت :

— أرجو يا الجيني لك . . .

— فلنتكلم بصراحة !. لقد حم أجلي وانطوى كتابي ولا معنى للكلام عن المستقبل . ولكن ما أعجب ذلك الموت الأزلي ، إنه كلما نزل بفرد توهمناه طارئاً على البشرية . ولكني لن أهن ... ماذا كنت أريد أن أقول لك ؟ انني أحبك . وقد انقضى حين من الدهر لم يكن لكلمة الحب عندي من معنى . وها أنا أموت ، وأذهب ، وأنت قائمة أبهر ما كنت جمالا وفتنة !



وقال بازاروف لأناسيرجيفنا وهو على فراش الموت : « وداعاً ، وطالت على الأرض أيامك »

فلم تستطع أنا سيرجييفنا مقاومة قشعريرة اعترتها ، فقال :

— لاتخافى . ألا تجلسين ؟. اجلسى قريبا منى ، ولـكن لاتقتربى كثيراً فان مرضى معد !

فجلست بجوار الأريكة التى كان راقداً فوقها ، فقال :

— امرأة رقيقة القلب !. تصورى أنك بجوارى مرة أخرى ! تصورى أنك أنت بنقائك وجمالك ونضرتك وشبابك فى هـــذه الحجرة النكثية ، وداعا ، وطالت على الأرض أيامك ، وأترعت بمناعم الحياة كأسك ، اغنمى الحياة ماعشت . فليس فى الدنيا ماهو خير من الحياة ، إنها أعظم شىء وأشهاه . ثم انظرى كيف نهايتى ، منظرشائه وحطام منبوذ . لقد انقضى حين من الدهر كنت أقول فيه سأصنع وأعمل ، ولن أموت قبل أن أتم ما أريد أن أعمل . وما زالت عندى الرغبة والارادة . رغبة عملاق وإرادة جبار ... ولـكن طوى الـكتاب !

ومد يده يريد كأسه ، فأعطتها إياه وهى تلهث ، فشرب واستطرد :

— لن يمضى وقت طويل قبل أن تنسينى ، فما يصلح الموتى رفقة للأحياء وسيقول لك أبى أى رجل فقدته روسيا قبل الأوان بفقدانى ، ولـكن لاتلق إليه بالا . ومع هذا فإياك أن تكشفى عن بصيرته الغطاء ، فانه عجوز ، فاتركى له وهمه الجميل يعش به مابقى له فى كتاب الحياة من أيام . سرى عنه كما تسرين عن طفل صغير . وأمى أيضاً كونى بها رفيقة ، فليس فى دنياك الواســعة مثل هذين الشيخين ، ولن تجدى لهما فى الأرض على مارحبت نظيراً ، ولو فتشت عنه فى ضوء النهار بشمعة ... روسيا بحاجة إلى؟. كلا ! إنها ليست بحاجة إلىّ . إلى من إذن حاجتها ؟. للنجارين والجزارين والخياطين ومن يخصفون النعال!. وماذا يبيع الجزار ؟ يبيع اللحم . أليس كذلك ؟.. أحسبنى قد بدأت أهذى.. وأرى أمامى غابة من

ومر بيده على جبهته . فانحنت أنا سيرجييفنا فوقه وقالت :

— افجينى فاسيليتش . إننى هنا !

فتناول يدها ونهض قليلا من رقاده ، ثم ومضت عيناه ببريق أخير كأنما يريد أن يلتهمها بنظراته فى زاده الأخير من دنيا الناس :

— وداعا ... لقد قبلتك تلك المرة . أليس كذلك؟ متى ، متى ..؟ والآن انفخى على تلك الذبالة المحتضرة ، كيما تذهب بسلام !

فلثمت فى رقة جبينه ، فغمغم وهو يستوى فوق فراشه مكتفياً :

— كفى !. والآن ليأت الظلام !

وغادرت الحجرة فى هدوء ، فلما سألها أبوه قالت بصوت يكاد لايسمع :

— لقد نام !

ولكنه لم ينم تلك الليلة ، بل راح فى غيبوبة طويلة . وفى اليوم التالى .. دخل فى دور الاحتضار !

وقبل أن يموت ، تقبل الأسرار المقدسة . فلما مس صدره الزيت المقدس فتح عينيه بنظرة أشبه ماتكون بالتقزز !

ولما لفظ نفسه الأخير ، انتابت والده فاسيلى ايفانتش نوبة كنوبات الجنون فراح يصرخ وكأن وجهه شعلة من الدرن ، وقبضته الواهنة تتوعد السماء :

— إنى أعلنك باحتجاجى ، أعلنك باحتجاجى . إنى أحتج !

فتعلقت زوجه العجوز برقبته والعبرات تخنقها وضمته إلى صدرها ، فسقط الاثنان على الأرض معا ، وظلا هكذا راكعين ، جنباً إلى جنب ، ورأساهما متجاوران كما تتجاور رؤوس الأغنام حين يلفحها الحر فى وهج الظهيرة !

أجل !

بيد أن لوهج الظهيرة أوانا ينقضى فيه ، ليخيم على آثاره غسق الأصيل وظلام الليل ، ومع الليل يطيف الكرى بمعاقد الأجفان ، فيجد المتعبون راحة بعد نصب . أما القلوب الثقال ، والشيوخ الثكالى ، فويل لهم من غسق الأصيل ومن ظلام الليل ، ومما يطوف به السهر الطويل والهم الزيل !

بعد حين

انقضت على تلك الليلة ستة أشهر ، وتبدلت أيام الصيف القائظ فصارت شتاء ناصع البياض ، صافى السماء ، غزير الثلج ، ونحن الآن فى ختام يوم من أيام شهر يناير

لقد خيم الظلام ، ولكن الضوء يتراءى من نوافذ مارينو . وهذا كبير الخدم بروكوفتش فى سترته الرسمية السوداء وقفازيه الأبيضين يضع مائدة العشاء ، وفوقها سبعة أطباق

سبعة أطباق ؟

نعم . فمنذ أسبوع عقد فى الكنيسة الصغيرة اكليلان : عقد قران اركادى على كاتيا ، وقران نيقولاى بتروفتش على تنيشكا !

وفى هذه الليلة يأدب نيقولاى بتروفتش مأدبة وداع لشقيقه بول الذى اعتزم الرحلة إلى موسكو ، حيث قررت أنا سيرجييفنا أن ترحل أيضاً بعد أن أهدت العروسين الشابين بائنة ضخمة !

وفى تمام الساعة الثالثة التأم الجمع كله حول المائدة . حتى ميتيا الصغير كان حاضراً ، جالساً فوق حجر مربيته . أما بول بتروفتش فكان جالساً بين كاتيا وتنيشكا . وأما العروسان فكان كل منهما يجلس بجوار عروسه من الجانبين

وقد زاد الشابان فى هذه الشهور الستة رزانة وثباتاً . أما بول بتروفتش فقد نحل قليلا ، فزاده النحول أناقة ومهابة !

ولكن ما من أحد تغير كما تغيرت تنيشكا . فهى اليوم سيدة كريمة على نفسها ، واثقة بها !

وأهدأ الجميع بغير شك نفساً هى كاتيا ، ولعل ذلك راجع إلى ثقتها بأنها وجدت نعمة فى عين حميها نيقولاى بتروفتش !

وانتهت المأدبة ، فنهض نيقولاى بتروفتش رافعاً كأسه ، موجهاً الخطاب إلى شقيقه بول بتروفتش ، وقال :

— أيها الأخ العزيز ، بل الأعز . لقد أزمعت الرحيل عنا . أجل ، لقد أزمعت فراقنا . ولـكن لاينبغى أن يطول غيابك ، لأننى لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى ... أريد أن أقول ... عن مبلغ ... الحق أقول لك انى لست خطيباً مفوهاً . فقم يا اركادى ، فانى تارك لك القيام بهذه المهمة عنى !

— ولـكنى لست مستعداً يا أبى !

— ولا أنا ياولدى !. وعلى كل حال يابول ، أعانقك ، وأتمنى لك السعادة ، وأتوسل اليك أن تعود الينا قريباً !

وشرب الجميع الأنخاب ، نخب كل واحد فى دوره ، حتى ميتيا الصغير ، ثم لم ينس بول أن يقبل يد تنيشكا ، ولم تكن قد تعلمت بعد كيف تقدم يدها للتقبيل بالطريقة الصحيحة . ثم قال أخيراً :

— أتمنى لـكم السعادة أيها الأصدقاء . ووداعاً !

وقالت كاتيا هامسة لزوجها وهما يقرعان كأسيهما :

— نخب ذكرى بازاروف !

فشد على يدها ، وشرب ، ولـكنه لم ينهض ليعلن ذلك النخب على المحتفلين!



كان ينبغى أن أكتب كلمة الختام . فربما يقلق بال بعض القراء جهلهم بمصير كل شخصية من شخصيات الـكتاب ، لهذا أحب أن أشبع فضولهم

وأبدأ بأنا سيرجيفنا ، فأذكر انها تزوجت ، لا عن حب ولا عن واجب ، تزوجت من سياسى باثق النجم فى مقتبل العمر يعد من أذكى المشرعين وأصحاب التفكير العملى والارادة القوية والفصاحة ، ولـكنه بارد الأعصاب فاتر المزاج . وعاش الزوجان على وفاق ودى ، وربما تطور ذلك مع الزمن إلى بلوغ السعادة ، وربما أيضاً إلى عاطفة الحب !

أما الأميرة فكان خير ما صنعت أنها ماتت ، واندثرت معها ذكراها .!

وأما آل كيرسانوف فاستقروا فى مارينو ، وتحسنت أحوالهم المالية . لأن

التجربة أثبتت قدرة فائقة فى إدارة الأعمال لأركادى. ويساعده فى ذلك أبوه، الذى يمر باستمرار بالفلاحين والعمال، ويخطب فيهم حاثاً على الاجتهاد

ووضعت كاترينا سيرجيفنا مولوداً ذكراً سمته كوليـا. أما ميتيا فكبر وترعرع وصار فتى جميلا. وزاد أيضاً جمال تنيشكا. وهى تعبد كنتها كاتيا. التى لا زالت مغرمة بعزفها البديع على البيان

وإذا انتقلت إلى مدينة دريسدن فى ألمانيا، فستقابل هنـاك رجلا أبيض الرأس، يشكو من مرض النقرس، ولـكنه يحتفظ بمسحة من الجمال، ويتأنق إلى أقصى حدود التأنق فى سلامة ذوق وحسن اشارة. وهذا الرجل هو بول بتروفتش الذى هجر موسكو إلى المدينة الألمانية انتجاعا للصحة!

وننتقل مرة أخرى إلى روسيا، لنرى فى ركن منزو من الريف جبـانة متواضعة، يحيط بها سور من العشب الأخضر. وفوق القبور صلبان خشبية متداعية. وفى حفرة من هذه الحفر يرقد جثمان الجفينى فاسيلتش بازاروف. وقد زرع والداه الشيخان حول قبره أجمة من الشجر الظليل. فالعصافير البرية لا تكف عن التغريد فوقه صباح مساء. ومن حين إلى حين يجر الشيخان سيقانهما الواهية إلى تلك المقبرة، حيث يركعان ويبكيان طويلا، وهما شاخصان ببصرهما إلى ذلك الصخر الأصم الذى يرقد تحتـه ولدهما الوحيد. ثم يشجع أحدهما صاحبه بكلمة، ويزيحان التراب عن حجارة القبر بعناية وحنان، ثم يتعاونان على النهوض ويجران أقدامهما مرة أخرى منصرفين إلى حيث الليل لا ينقضى، والصبح لا يتنفس، والذكريات تطن وتدور فلا يجدان عنها منصرفا، ولو وجداه لما كانا به حفيين!

أدموع كهذه تذهب سدى ولا طائل تحتها؟

أيذهب سدى كل ذلك الحب الذى لا أنانية فيه؟

كلا!. ثم كلا وألف كلا! فربما كان القلب الذى يرقد تحت ذلك الصخر صلداً كالصخر، ضالا كالليل، وحشيا كطير الفلاة. ولـكن وراء حب هذين الأبوين، معنى كريم باق على الزمن، ان الحياة أقوى من الموت، وان الحب أقوى من الـكراهية، وان الحياة سرمد لا يعرف الانتهاء!



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكر الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر يناير 2020 **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

٧٠ ٢١٧

هذه الرواية



صدرت هذه الرواية باسم « الآباء والأبناء » فى مجلة أسبوعية اسمها « الرسول الروسى » كانت تعتبر لسان المدرسة الجديدة. وقد ترجمناها هنا باسم « صراع بين الأجيال ». وهو ينطبق على موضوعها فى كل زمان ومكان. فما لا ريب فيه أن الحالة الاجتماعية قد تغيرت عما كانت عليه، ولكن مشكلة تفاوت الأجيال فى الفهم والشعور، والصراع بينها من أجل البقاء، والاختلافات فى الأمزجة وطرق الحياة لا تزال كما كانت، وستظل كما هى ما دام ناموس تنازع البقاء موجوداً، وما دامت الطبيعة تنزع الى التطور والتغيير!

فهذه الرواية إذن عمل فنى لا يخضع للزمان والمكان، لأنها تعالج شؤون الانسان من حيث هو إنسان، وتتناول حياة المجتمع من حيث هو مجتمع حى يتغير بتغير الأفراد والأجيال، ويتطور بتطور العادات والمذاهب والأفكار

وقد اجتمعت للفترة التى تدور فيها حوادث الرواية مزايا هامة، فقد تحرر فيها عبيد الأرض، وتطلع الأحرار الى تقلد زمام الأمور، وتغيير أساس المجتمع خلقياً واقتصادياً واجتماعياً. ولكن تورجنيف لم يكن يهدف الى الثورة التى قام بها هؤلاء الأحرار، بل كان يهدف الى اصلاح المجتمع اصلاحاً ينقذه من عيوبه وآفاته فى هدوء وغير عنف

وقد تخير شخصيات روايته بعناية وأمانة، ورسمهم فى دقة فنية وفى غير تكلف ولا افتئات، فلم يجعل انسيء سيئاً على طول الخط، ولا الحسن حسناً باستمرار، وكان فناناً أميناً فى بيان كل صغيرة وكبيرة فى حياة كل من هذه الشخصيات

وقد أجرى على لسان بطل الرواية الأول « بازاروف » معظم آرائه الجديدة، فيما عدا الفنون. ولم ينس تورجنيف العاطفة الشابة فى أهم حوادثها، فجعل لها دوراً بارزاً فى فصول روايته لأنها جانب هام فى حياة الجيل الجديد، جيل الشباب والحب